

فنون الأديب العربي

الفن الغنائي

٣

الوصف

يشارك في وضع هذه المجموعة
لجنة من أدباء الأقطار العربية



دارالمعارف



الوصف

فنون الأدب العربي

الفن الغنائي

٣

الوصف

يشارك في وضع هذه المجموعة
لجنة من أدباء الأقطار العربية

الطبعة الثالثة



دارالمعارف

تمهيد

منذ قامت العبقرية في الدنيا سعى الفنان إلى الطبيعة في حب وإعجاب ونشوة وذهول ، فسكّر بجمالها ، وانتشى بمحاسنها ، واتخذها مثلاً يحتذى ، يصوره ويقلده بالأصوات أو بالألوان ، فكان الرسام والنحات والموسيقي والشاعر . وكل منهم عمد إلى الأرض والسماء ، والحيوان والنبات ، والإنسان والماء ، يرسمها بنحاله ويصفها بفنه ، فخلق في متاحف الفن صورة لإبداعه ومثلاً من خلقه .

والشاعر العربي فنان مبدع سار في ركب هؤلاء العباقرة الإنسانيين فرسم ما رأى وصور ما شاهد ووصف ما أحسّ ، فترك في المتحف الأدبيّ صفحات خالدة على اختلاف العصور ، تقف لمتاحف الرسامين والنحاتين والمصورين في إبداع الخطوط وقوة التقليد والمحاكاة ، ونقل الصوت والحركة والنشاط ، ورسم الحديث واللون والظل ؛ سواء أكان في رسم الطبيعة أم في تصوير الإنسان والحيوان ، أم في وصف الأخلاق والطباع والعادات . فلعله فهم الأدب على أنه وصف كله ، ولعله سار فيه على أنه وصف حسي مادي ، في مدحه للرجال ، أو هجائه للخصوم ، أو فخره بقوته وشجاعته ، أو رثائه للأحبة الذين يفقدهم ، أو في نسيبه وتشبيبه بالمرأة والجمال .

فلما عرض النقاد القدماء لهذا الشعر قسموه إلى أبواب فيها المديح والفخر والهجاء والرثاء والنسيب والوصف . ورأوا أن الوصف يغلب عليها جميعاً ويشملها بردائه حتى قال ابن رشيق : « إن الشعر إلاّ أقله راجع إلى باب الوصف » . وقد جعلوا الأبواب الخمسة للإنسان تصف أخلاقه وطباعه ومزاياه

ومحاسنه وخلقته وتكوينه ، وخصوا الوصف بالحيوان والنبات والأرض والماء والنار والسماء ، وأدخلوا الخمر فيها على أنها بعض هذه الأجزاء .

وفسروا الوصف في معاجهم بأنه الكشف والإظهار ، فإذا قالوا : وصف الثوب الجسم فقد أرادوا أنه نم عليه ولم يستره ، فهو في عرفهم ذكر الشيء بما فيه من الأحوال والهيئات ، وقد نظر النقاد المحدثون إلى ما قيل في الطبيعة الميتة وفي الطبيعة المتحركة ، فرأوا أن الشعر يكشف عنها ويرسم حالها وهيئتها ، لذلك جمعوا ما كان في الوصف ، فسموه حيناً بشعر الطبيعة وحيناً بشعر الوصف ، وألفوا فيه بعضاً من الفصول والكتب .

وقد خص القدماء أبواب الوصف بعنايتهم فعرضوها في مختاراتهم وتحدثوا عما فيها من بلاغة وفصاحة ، وبعض هذه المؤلفات مطبوع ، كتشبيات ابن أبي عون وديوان المعاني لأبي هلال العسكري ، ونهاية الأرب للنويري ، وبعضها مخطوط كالحب والمحبوب والمشموم والمشروب للسرى الرفاء ، والتحف والهدايا للخالدين ، وقد رجعنا إلى هذا كله ، واعتمدنا عليه ولا سبيل إلى ذكر الصفحات والمراجع القديمة والحديثة عند كل استشهاد فذلك يطول ، وفيه الشعر والنثر ، فوقفنا عند الشعر فحسب لأنه ألزم بالبحث .

ونحن حين نجمع هذه الألواح والصور بعضاً إلى بعض ونقرب بينها نستطيع أن نبين من خلالها صورة للأرض التي عاش عليها العرب من وهاد وتلول ، وصحارى ورياض ، وأنهار وبرك ، وزهر ونور ، وشجر وثمر ، ورسماً للحيوان الذي كان يدب بينهم ، وللقصور التي كانوا يشيدونها ، والطلول التي كانوا يغادرونها ، ولجالس الشراب التي كانوا يعقدونها ، والحروب التي كانوا يخوضونها ؛ ولنلمح الوجوه والملابس لمختلف الطبقات والأمم التي اختلطوا بها ، وما كانوا يستحبون منها ، وما كان يدور بينهم من حديث فيها ، وما كانوا يفضلون من جو وبيئة ، وما ينظرون من الأفلاك والسماء والسحاب والمطر ، فكأننا نتعرف إلى حياتهم

الاجتماعية كما صورها شعراؤهم على اختلاف العصور والأقطار، وقد انعكست في أوصافهم نفسياتهم وحالاتهم من فرح وحزن . وحب وكره ، ورضا وحقده ، وحب وسلم .

فقد كانوا يستلهمون من طبيعتهم وزمانهم أوصاف ما تقع عليه أعينهم وتجرى فيه أخیلتهم ، في البدو والحضر ، في الحجاز أو في الشام ، في العراق أو في مصر والأندلس ، بل كانوا يختلفون في ذلك حين تقسو الطبيعة أو تلين ، وتسوخو الحياة أو تبخل . فالراعي غير الأمير ، والمقاتل غير اللاهي ، وساكن الصحراء يختلف عن سكان الأنهار ؛ والحياة في العصر الجاهلي تختلف عما آلت إليه في العصر العباسي أو الأندلسي . فإذا كانت قد تشابهت صور الوصف في هذه العصور فمردها إلى الحنين أو التقليد . أو الضعف وقعود العبقريّة . وأغلب الظن أن العربي تأثر بالأمم قبل الإسلام حين اتصل بالفرس أو بالروم قبيل القرن السادس للميلاد ، فقد عاشت قبائلهم في كنف الغساسنة والمناذرة ، وسافر شعراؤهم إلى هؤلاء وهؤلاء ، فألفوا الغناء الفارسي أو النشيد الرومي ، وانتقل ذلك إلى أقوالهم وأحاديثهم وشعرهم من غير أن تفصح الكتب عن هذا الأثر ، أو يشير التاريخ إلى هذا التفاعل .

فلما انتقل العباسي إلى العراق وتغلغت الحضارة الفارسية في حياته وانتقلت إلى شعره ذكر النقاد هذا الأثر وبالغوا فيه ، لأنهم كانوا يشيرون إلى كل مصدر ، وبيحثون عن كل ينبوع ، ويتحدثون عن فضل الأعاجم ، فأروا أن الوصف طبع بطابع الحضارة الجديدة ، وألمّ بتقاليد الفرس .

ولما كان القرن الرابع للهجرة تأثر العباسيون بهذه الصور ودرجوا على حبها ومعالجتها ، فحلق الشعراء في الوصف وبلغوا ذروة الفن ، وطرقوا الموضوعات في عمق وشمول ، ورسخوا الحياة في كثير من الإبداع والدقة .

وحين عاش العربي في الأندلس ظل قروناً يقلد المشرق ، حتى كان القرن

الخامس للهجرة ، فحاول أن يجدد وأن يخرج عن نطاق الأدب القديم ، فكانت له صور موفقة وأساليب جديدة ، تقع حيناً من القرن الرابع موقع الشبه والمجاورة . ولما أطلّ العصر الحاضر غزت الحضارة ديار مصر ، واتصلت الشام بأسباب الغرب فتحرك الوصف نحو الطرافة والجلدة ، وبلغ مبلغاً من التوفيق خلال السنين الأخيرة في الشام ومصر ، يبعث الأمل في أدب المستقبل .

وسنعرض في الصفحات التالية فصول هذا التطور ، ونبسط بعض صور الطبيعة الميئة والمتحركة ، فترى كيف نظر العربي على اختلاف الزمن إلى موضوعات الوصف من حيوان وأرض وسماء وخمر وسلاح وحرب ، في العصر الجاهلي ثم الأموي ، فالعباسي والأندلسي ، إلى أن نبليح المعاصرين فنلم في إيجاز بشعرهم في الوصف ، نورد الأمثلة حيناً ونختصرها حيناً ، ونحكم عليها أو لها ، وما هي إلا محاولة في هذا الباب نرجو أن تقع موقع التوفيق ، لسعة البحث وتعدد مناحيه ، والله من وراء القصد .

سامي الدهان

الفصل الأول

العصر الجاهلي

وصف الحيوان

الناقة - الفرس - البقرة الوحشية - الثور الوحشي -
الظليم - العقاب - الذئب

عاش العربي في جزيرة واسعة تختلف عليها الرمال والأنواء والرياح ،
وتشتد عليها الطبيعة وتقسو ، فكان ينتقل في سبيل العيش ، ويضرب في
الأرض وراء اللقمة ، فيجتاز مسافات كبيرة ويخترق صحارى شاسعة كأنه
في ركب الحياة على سفينة تتقاذفه تعلقو به وتهبط ، فيلتي مصاعبها ومتاعبها
إلى أن يرسو به القدر عند مرفأ أمين يحط فيه رحاله ويلجأ إليه حيناً من زمن .

وكان سبيله إلى هذا التنقل حيوان يقتسم معه هذا العيش الشديداً يقطع عليه
المسافة فيرافقه ويعايشه ، ويقضي معه أكثر حياته فيألفه ويحبه ، ويرى فيه
أعظم صديق وأنبل رفيق ، يتحمل معه التعب والعناء والسير والسرى ، وقد وجد
ضالته هذه في الناقة والفرس . فالناقة تنيخ بإناخته وتنهض إلى غايته ، تسير كما
يريد في إرقال أو وحده ، تؤنس وحشته وتخفف وحدته ، فيغنيها وينشدها إذا أتيح
له أن يغني أو ينشد ، فالحيوان يتأثر بالموسيقا والحدااء .

والفرس صديق العربي في عيشه كذلك في الحرب والسلام ، في الحياة الجادة
والهائلة ، حين يحارب الإنسان أو يصطاد الحيوان ، وهو وفي له يصحبه في السراء

والضراء وحين البأس ، فهو قوته وسلاحه ، وموضع مجده وعزته وفخاره .
لذلك أحب العربي هذا الحيوان ورأى فيه نجدة وملاذآ ، فهو منبع ثروته
ومحل إكباره ، يذكره كما يذكر الغزلون المرأة . يحبه ويستوحى منه . وسنعرض
لهذه الصور التي صنعها الشعراء في الحيوان الأنيس ، ونجعلها بعضاً إلى بعض
لنتبين الصورة التي رسمتها أخيلتهم ومشاعرهم لهذا الرفيق المخلص والصاديق الوفي ،
كما نعرض لوصف الحيوان المستوحش بعده ، وهم يطاردونه ويصطادونه ، فيرون
فيه الشريد الطريد . وسنبداً بالأنيس قبل كل شيء كالناقة والفرس .

الناقة

أحب الجاهلي الناقة لأنها تغذيه بلبنها ، وتكسوه من وبرها ، وتطعمه من لحمها ،
فهى عنده غذاء وكساء ، وهى حياته فى هذه الصحراء . وقد تعاقب على وصفها
كثير من الشعراء ، سنتخذ أمثلتهم مما بسطته كتب المحدثين (١) ، لنرى أيهم
أجاد فى رسمها ووفق فى وصفها ، وفيهم بشامة بن الغدير ، وطرفة ، والمسيب ،
وزهير ، والمثقب .

أما طرفة بن العبد ، فقد عاش فى القرن السادس للميلاد ، وقضى شاباً
وشقى كثيراً ، ولكنه كان سريع الخاطر حاد الذهن ، فانصرف أول الأمر إلى
اللهو والأنس والشرب واللذة ، ولذلك كثر لومه ، وتباعد عنه إخوانه ، فعاش
حزيناً يهيم على وجهه ، يشتغل بالغزو أو يأوى إلى مغاور الجبال ، لا أنيس له إلا
هذه الناقة الأمينة الضامرة ، فكان يطوف عليها أطراف الجزيرة ، لذلك طالت
صحبته لها ، وكثر نظره إليها ، وأبعد فى وصفها حتى أبدع وفاق أقرانه . فأكسب

(١) أنخص بالذكر منها كتاب «الوصف فى العصر الجاهلى» - لعبد العظيم القنارى ،

فهو جامع مانع فى هذا الباب .

صورتها نشاطاً وحركة ، وكساها بالظلال ، ورسم جسمها في خطوط كبيرة على دقة واستيعاب ، قال في معلقته :

- وإني لأمضي الهم عند احتضاره
أمون كألواح الإران نسأتها
لها فخذان أكمل النحض فيهما
وطى محال كالحنى خلوفه
كقنطرة الرومي أقسم ربهما
وأتلعُ نهاضٌ إذا صعدتُ به
وجحمة مثلُ العلاة كأنما
وعينان كالمساويتين استكنتا
ونحدُ كقرطاس الشامي ومشفرُ
بعوجاء مرقال تروح وتغتندي (١)
على لاحب كأنه ظهر بوجد (٢)
كأهما بابا منيف ممرد (٣)
وأجرنة لزت بدأى منضد (٤)
لتككتفن حتى تشاد بقرمد (٥)
كسكان بوصى بدجلة مصعد (٦)
وعى الملتقى منها إلى حرف مبرد (٧)
بكهفي حججاجي صخرة قلت موررد (٨)
كسبت اليماني قده لم يحرد (٩)

- (١) الاحتضار : الحضور - العوجاء : الضامرة التي لحق بطنها بظهورها - الأرقال : السرعة - تروح وتغتندي : أي تصل آخر النهار بأوله في السير .
(٢) أمون : يؤون عشارها - الإران : تابوت كانوا يحملون فيه الموتى - نسأتها : زجرتها والمنسأة هي العصا - الاحب : الطريق البين - البرجد : كساء مخطط .
(٣) النحض : اللحم - المنيف : القصر المشرف - ممدد أو ممرد : أملس .
(٤) طى محال : أي محال مطوية متراصفة دان بعضها من بعض - الخال : فقار الظهر واحده محالة - الحنى : ج حنية وهي القوس - الخلوف : ماخير الأضلاع - أجرنة : ج جران وهو باطن الحلقوم - لزت : ألصقت - الدأى : ج دأية وهي فقار العنق - المنضد : المصق بعضه ببعض (٥) قنطرة الرومي : شبه الناقه بها لانتفاج جوفها وشدة خلقها - الأكناف : النواصي - تشاد : ترفع - القرمد : الآجر .
(٦) أتلع : العنق الطويل - نهاض : مبالغة في النهوض - السكان : دفعة السفينة - بوصى سفينة .

- (٧) العلاة : السندان - وعى : جمع - الملتقى : حيث تلتقي قبائل الرأس .
(٨) الماوية : المرأة - الكهف : الغار - حججاج : عظم مشرف على العين ينبت عليه الحاجب قلت : فقرة في الحجر تمسك الماء - المورد : الماء .
(٩) السبت : جلود البقر المدبوغة - لم يحرد : لم يمل فهي شابة لم تمل مشافرها - القند : ما قد من الجلد .

فالناقة ضامرة نجبية سريعة مرقال ، وذنبها ذيالٌ كثير الوبر يشبه في ذلك جناحي نسر قديم ، ولها فخذان مكتنزان باللحم ، وفقرات متداخلة تكوّن مع الأضلاع قسيماً متراصّة . وهي في صلابتها كقنطرة الرومي بناها الصناع بالآجر المتين . إنَّها ضخمة الرأس طويلة العنق قوية ، ولها خد كالقرطاس الشامى أبيض لا شعر فيه ، ومشفر كالجلد المدبوغ لم يميل في تقطيعه ، وعيناها كالمراآتین استكنتا في كهف جبلى .

هذا إذا وقفنا عند ظاهر جسمها وأعضائها ، ولم نتجاوز إلى حذرنا وسرعة سيرها ونشاطها ، وطاعتها ولين انقيادها ، فالشاعر شبه كل عضو من أعضائها بشيء وقع عليه حسه كالنسر ومشيد القصور ، والقسي والقنطرة والقرطاس الشامى والجلد المدبوغ والمرآة . وهذه كلها في تناول خياله أو في ملك نظره يمد يده إليها حين يريد . وقد بسطها بسطاً مادياً حسياً ، فتصور أجزاءها شبيهة بهذه الأشياء . وقد رأينا الألفاظ عند الشاعر غريبة جداً ، طواها الزمان وسكت الشعراء عن ترديدها ، وقد كانت مألوفة لعهد فتصرف فيها تصرف المعتز الفخور ، وطرق بها هذه المعانى النادرة ، ورسم أجزاء من الحيوان لم يكن بد من وصفها بهذه المفردات ، ولعله عبد الطريق لغيره من الشعراء في وصف الناقة والإمام بهذه التشبيهات المادية ، فأوغلوا في التصوير وساروا على سننه ، وهم كثير لا يحصون ، سنعرض لبعضهم هنا .

أما بشامة بن الغدير ، فقد قال إن أذن الناقة ضخمة تتبلل بالعرق ، ولها صدر عريض كأنه الطريق الواسعة ، وهي شديدة الوطاء كالسيد القوي العزيز يطلأ الذليل في جبروت ، وأنها أسرع من نعامة حين يطاردها الظلم ، وهي في ضخامتها تشبه السفينة تمخر العباب وتجرى في اليم لا يدركها أين ولا يلحقها ونى ، مكتنزة اللحم ، قوية الفخذين ، متسعة الصدر ، سريعة السير ، تجرى كأنها تخوض في عباب متلاطم :

إذا أقبلت قلت : مدعورة أطاع لها الريح قلماً جفولاً (١)
 وإن أدبرت قلت : مشحونة من الرمد تلحق هيقاً ذمولاً (٢)
 وإن أعرضت راء فيها البصر يرُّ ما لا يكلفه أن يفيلاً (٣)
 فإذا أقبلت عليك حسبها، قد تملكها الذعر وركبها الفرع لشدة نشاطها ،
 وإذا أدبرت حسبها سفينة ، وإذا تحولت عنك عرفت منها ما لا يخطيء معه
 ظن ولا يخيب فيه تقدير .

والمتقّب العبدى ، قال فيها كقول زميليه ، فوصفها بوفرة اللحم وكثرة الشحم
 وسمنة العنق ، سنامها ضخمة يشبه قبة القصر العظيم ، ممتلئة الوجنتين ، ثخينة
 الجلد وأعضاؤها كأعضاء الحمل ، تتسامى بعنقها إذا سارت وكاهلها سامق
 كالحصن المنيع . وهى كذلك سريعة الجرى جميلة فى إرقالها ووخدها ، تصل
 الليل بالنهار ، ولا تحوج حاديتها إلى زجر أو نغم ، تشبه فى جمالها الثور الوحشى
 ولا يصف المتقّب أعضائها كلها ، ولا يبلغ إلى إحصاء كل ما فيها ، وإنما
 يذكر خدمتها له وقيامها بمهمتها فى صبر وجلد ويقظة ، وهذا كل ما يحتاج إليه
 السارى والراكب .

وزهير بن أبى سلمى ، يصفها ضخمة الوجنات وثيقة الأعضاء تشبه الحمل
 كذلك فى خلقها وانبساط هيكلها ، نشيطة سريعة ، تطيع فلا تحتاج معها إلى زجر
 أو ضرب أو تشويق ، تسير الليل والنهار فى صبر وجلد ، وتعرق حين تغلّ فى
 مسافات شاسعة واسعة ، وذنبها ريان غليظ ضخمة تضرب به ساقها ، تجرى فى
 سرعة كالريح لتبلغ بك إلى الهدف وتصل إلى يم النجاة ، تشبه البقرة الخنساء فى
 جمالها وتكوينها ، كريمة عزيزة جوازة الآفاق ، ذكية الفؤاد ، شديدة الذعر مخافة

(١) أطاع لها : هيا لها - جفولاً : مسرعاً .

(٢) مشحونة : مملوءة - الرمد : ج أرمد ورمداء وهى النعامة - الهيق : ذكر النعام -

ذمولاً : مسرعاً .

(٣) راء : رأى - يفيلاً : يخطيء .

أن ينهال عليها السوط ، وزهير في وصفه لا يرسم الأعضاء كلها ولا يفصل القول فيها ، وإنما يتحدث عن حاجته إليها في السرعة والصبر وعظيم الخدمة .

والمسيب بن علس ، شارك في وصف الناقة ، ورسمها ضامرة الخصر واسعة الخطو ، حديدة البصر ، شديدة الإذعان ، ظهرها كقنطرة ملساء ، مكتنزة اللحم ، وسنامها ضخيم متعال يشبه أكمة الرمل ، وعنقها مستطيل كالشرع ، قوية الصدر نشيطة تندفع نحو العدو كأنها تقاذف كرة في أرض منخفضة سهلة ، أو كأنها في سرعتها امرأة تريد أن تنسج ثوبها وأن تتمه قبل أن يقع المساء وتطوى شرع النهار . وهذه الصورة يعبر عنها في أسلوب جميل بين يقول :

مرحت يداها للنجاء كأنها تكرو بكفى لاعب في صاع (١)

فعل السريعة بادرت جدّادها قبل المساء تهم بالإسراع (٢)

فدلنا بذلك على ما كان للاعب في أرض العرب وما للمرأة من عمل في بيتها حين تختلس ساعات النهار في نسج الثوب قبل أن يهبط الظلام فيلف الدنيا بردائه . وهو لطيف حين يطير بتصويره إلى قبيلته في رسمها لاعبة لاهية أو يصور النساء في عملهن اليومي .

وهؤلاء الشعراء يتشابهون في وصف نياقهم ، فيرسمونها بالضخامة والقوة وسرعة الجرى وشدة الطاعة ويستعملون في ذلك الصور الحسية المادية ، ويشبهون كل عضو بصورة عرفوها وألفوها في حياتهم الاجتماعية . يشبهونها في قوتها بالإبل وهذه معروفة بالسرعة والقوة ، ويرون فيها سبيلاً للنجاة من المفاوز والبادى ، وسفينة في عباب الصحراء يركبونها إلى غاياتهم وأهدافهم ، فلا تتوانى ولا تتمهل ولا يدركها تعب أو إرهاق ، على أنها تشاركهم الشقاء في العيش

(١) مرحت : نشطت - النجاء : الإسراع - تكرو : تلعب - الصاع : المنخفض من

الأرض .

(٢) الجداة : ما بقى من خيوط الثوب .

والضنك في الحياة ، وتقاسمهم الآلام والآمال ، فتحس برغباتهم وتطيع حاجاتهم ،
تسرع من غير وقوف ، وتسير من غير زجر ، وتجرى من غير حذاء أو غناء .
وقد سبقهم طرفة فوصف ما وصفوا ، وأضاف إلى أوصافهم أعضاء الناقه ،
ولكنه أوغل في غرابة اللفظ وأسر المفردات ، فزاد على زملائه في خشونة التعبير ،
وسبقهم في دقة التصوير .

الفرس

وإذا كانت النياق وسيلة النقل — كما نقول اليوم — فالخيل كانت للركوب
في الزينة والصيد والحرب ، تشارك الفرسان في الطعن والضرب واللهو والصيد ، وقد
أقبل عليها شعراؤنا فوصفوها بحمالها وسرعتها ، ولشاركتها في المواقع والمعارك والمآسى
والملاحم والأفراح والأتراح ؛ فهي للترف كما هي للحاجة . وقد جاء في كتب
الأدب أن العرب كانت ترتبط الخيل في الجاهلية والإسلام معرفة بفضلها وما
جعل الله تعالى فيها من العز والفضل ، فتكرمها وتؤثرها على الأهلين والولد ،
وتفخر بذلك في الشعر والنثر .

وقد نقل في هذه الكتب أن داود نبي الله أحب الخيل حبا شديداً ،
فلم يكن يسمع بفرس يذكر بعرق أو عتق أو حسن أو جرى إلا بعث إليه
حتى جمع ألف فرس ؛ وجاء فيها أن سليمان أحبها كذلك . ونسجت كتب
الأدب حول الخيل صفحات عديدة تشرح فضلها ، وما قال فيها القدماء
من شعر وما حام حولها من أساطير وقصص ، وما اتخذوه لها من أسماء خاصة
وأناساب معينة تجدها في «أنساب الخيل» لابن الكلبي وفي «الحيوان» للجاحظ ، وفي
«حلية الفرسان وشعار الشجعان» لابن هذيل وغيرها ، يطول بنا المقام إن عرضنا ما
تقول فيها . فحب الخيل قديم قبل الإسلام وبعده ، وذلك لتعلق العرب بهذا الحيوان
وطول صحبتهم له وشدة أنسهم به . فلا غرابة إن نشأ ديوان ضخم في رسمه منذ

الجاهلية ، فقد وصف الفرس كثير ، وفيهم امرؤ القيس ، وعنترة ، والمرقش الأصغر . . .

أما امرؤ القيس ، فقد وصفها في مواقع عدة من شعره في المعلقة وغيرها ، فرسمها في ضخامتها وقوتها ، وصور ظهرها وخصرتيها وساقها وذنبها ، واكتفى بالخطوط العريضة الكبيرة كما فعل طرفة بناقته ، ولكنه لم يشبه أجزاءها بالقصور والدور والسفن والقناطر ، وإنما عمد إلى الطبي والنعامه والتعلب والذئب والصخر والمطر والجبل ، وتطرق في وصفه إلى الأطفال والبنات والنساء فشبّه أعضائها بشيء من هذا كله ، أو بما يقومون به من ألعاب وحركات ، واستعان بالتشبيهات على عرض صورة للمسافة والحيز واللون لعله يقربنا من أوصاف فرسه ، ونفخ في الصورة بروح الحركة والنشاط بما يستلزمه الصيد والطراد فقال :

وقد أغتدى والطير في وكناتها بمنجرد قيد الأوابد هيكلك (١)
مكر مفر مقبل مدبر معاً كجلمود صخر حطه السيل من عل (٢)
كيت يزل اللبد عن حال متنه كما زلت الصفواء بالمتنزل (٣)
على الذبل جيش كأن اهتزاه إذا جاش فيه حميه غلى مرجل (٤)
مسح إذا ما السابجات على الونى أثرن غباراً بالكديد المركل (٥)

(١) أغتدى : أذهب باكراً - الكونات : ج وكنة وهي عش الطائر وبيته - المنجرد : قليل الشعر - قيد الأوابد : يقيدها بسرعة ركضه - هيكلك : عظيم الجرم .
(٢) كرفسه على عدوه : عطفه - مفر : مبالغة في الرجوع - الجلمود : الصلب من الصخر
(٣) الكيت : ما لونه بين السواد والحمرة - الحال : مقعد الفارس من ظهر الفرس - الصفواء : الصخرة الملساء - المتنزل : صفة لمحدوف تقديره المطر .
(٤) الذبل : الضمور والضعف - جيش : مبالغة من الجيشان وهو الهياج والغليان - الاهتزام : صوت الفرس في سرعة السير .
(٥) مسح : مبالغة من السح وهو الصب والدفع - السابج من الخيل : الذي يمد يديه في عدوه - الونى : التعب - الكديد : الأرض الصلبة المغطثة - المركل : الذي وطلته الأرجل .

- يزل الغلام الخفّ عن صهواته ويلوى بأثواب العنيف المثقل (١)
 درير كخذروف الوليد أمره تتابع كفيه بنحيط موصل (٢)
 له أبطا ظي وساقا نعامة وإرخاء سرحان وتقريب تتفل (٣)
 ضليع إذا استدبرته سدّ فرجه بضاف فويق الأرض ليس بأعزل (٤)
 كأن على المتنين منه إذا انتحى مدالكّ عروس أو صلاية حنظل (٥)

فهو يغدو باكراً قبل أن تهجر الطيور وكناتها، فيعتلى صهوة جواد قد انحسر شعره لشدة سمنه، ماض لا يقف، سريع يسبق الوحوش الأوابد فيقيدها بسرعته وما تستطيع منه فكاككا، وهو يكر فلا يلحق ويفرّ فلا يسبق، يقبل ويدبر شديد الحركة عظيم القوة، يجرى كالحجر الكبير حين يسقطه السيل من أعالي الجبال، ضخّم في جثته، مكنتز اللحم حتى ليسقط اللبد عن ظهره سقوط الماء على الصخرة الملساء؛ يهدر في ركضه كما يجيش المرجل بالماء. وإذا كانت الجياد تثير الغبار لكلاهما فهو ينصب انصباباً، فلا يثبت الغلام الخفيف على صهواته، ويسرع كالخذروف في يد الصبي.

ولذا الفرس خاصرتا ظي وساقا نعامة، يسير كما يسير الذئب، ويجرى كالثعلب الوليد، وهو على ضموره عظيم الأضلاع إذا تأملته مستدبراً رأيته يسد الفضاء بين قائمته بذنبه الطويل، وإذا نظرت إليه بغير سرج وجدته يلتمع

- (١) الصهوات : ج صهوة ، وهي مقعد الفارس من ظهر الفرس - العنيف : ضد الرقيق .
 (٢) درير : صفة للفارس الذي يدر الجرى أي يديه ويتابعه - الخذروف : آلة مستديرة من جلد أو خشب يديرها الصبيان بنحيط أدخل في ثقبها .
 (٣) الأبطال : الخاصرة - إرخاء : ضرب من عدو الذئب - السرحان : الذئب - تقريب : ضرب من العدو كذلك - تتفل : ولد الثعلب .
 (٤) ضليع : عظيم الأضلاع - استدبرته : نظرت إليه من مؤخره - الفرج : الفضاء بين اليدين والرجلين - ضاف : طويل - أعزل : يميل عظم ذنبه إلى أحد الجانبين .
 (٥) المتنان : ما على يمين الفقار وشماله - انتحى : اعتمد - المدالك : الحجر الذي يسحق به الطيب - الصلاية : الحجر الأملس .

جلده كما تلمع الصلابة والمداك في بريق ولعان .

والشاعر في وصفه الفرس يختار له الضخامة والقوة والصلابة والسرعة، ويختار لوصف ذلك صوراً من الحياة التي يراها والأدوات التي يصبح عليها ويمسى ، فهو كالصخرة المتحدرة مع السيل، وهو في صوته كالمرجل حين يغلي ، وساقاه كالنعامة، يشبه حيناً بالثعلب وحيناً بالذئب . وما نرى جاهلياً يستطيع أن يصطاد ألواناً أكثر من هذه ، أو يجمع تشبيهات أوسع ، فقد أوفى على الغاية في رسم القوة والسرعة . ولعله بذلك نحت تماثلاً للفرس كأجل ما يصنع المثال في خطوطه العريضة . ولكنه لم يرسم العينين والوجه والغرة والعروق ، وإنما وصف الحركة والضجة والصوت والنشاط ؛ وذكر الخدمة التي يؤديها لصاحبه في سرعته وبلوغ غايته . ولعل هذا كل ما يطلب امرؤ القيس من فرسه، يفخر به ويعتز بامتلاكه .

وعنتر بن شداد العبسي ، افتخر بفرسه كذلك ووصفه بأنه ضخم الجسم عظيم الأعضاء ضامر الخصر متلاحق الأقراب ، عظيم الكفل مكنتز اللحم ، ممتلىء بالشحم ، ولكنه على ذلك كله لين العريكة سهل القيادة كثير الحركة يتلاعب بحديد لحامه .

والفرس عند عنتر كذلك في جريه يشبه السيل المنهمر على الصخرة المساء ، ولكنه وصف وجهه ورسم منخريه كسردابين مفتوحين ، يستكن فيهما الضبع لاتساعهما ، وصور حوافره بصلابتها كأنها من صخر ، وجعل ذنبه في طوله كرداء سابغ لرجل غنى واسع الثروة ، وقد أبدع في وصف عينيه ومشيته حين قال :

سلس العنان إلى القتال فعينه^١ قبلاء^٢ شاخصة^٣ كعين الأحول^٤ (١)
وكان مشيته إذا نهنته^٥ بالنكل مشية شارب مستعجل^٦ (٢)

(١) سلس العنان : لين القيادة - قبلاء : ناظرة إلى أعلى - الأحول : الرجل الذي يحرف إنسان عينيه إلى أحد الجانبين .

(٢) نهنته : زجرته - النكل : حديدة اللجام .

شبهه بالإنسان الأحول في عينه والشارب المسرع في سيره ، فرسم الأشخاص واستعار في لوحته من ملامح وجوههم وتعثرهم في الشرب ، فكان موقفاً مبدعاً أيما إبداع ؛ فهو قد أضاف إلى صور الفرس تشبيهات جديدة إذا ضمنت إلى صور امرئ القيس خرجنا بمتحف فني لهذا الحيوان الجميل .

والمرقش الأصغر ، ربيعة بن سفيان ، كان من الشعراء الفرسان وكان يغدو إلى الصيد بفرس صافي اللون ، ضامر البطن أملس الجسم جميل الخلق ، أغرّ الجبهة ، محجل القوائم ، يصيد الشوارد ويقنص الأوابد ، يشاركه حربه وسلمه ، جدّه وطوه ، ذلول سلس العنان سهل القياد ، لكنه حين يثور تسمع له همهمة وزججة كظبية فنية قوية شديدة النشاط لا تهدأ ولا تسكن ، فهو سريع واسع الخطا حين يشدّ على العدو ويندفع اندفاع الأنيّ ، فليس فيه عيب ولا يلحقه نقد ، لذلك كان موضع فخره واعتداده واعتزازه ، لا يسبق مطروداً ويلحق بخصمه طارداً ، ويخرج بصاحبه من كل ضيق ، وكذلك تكون الجياد .

والمرقش لا يقف عند أجزاء الجسم وقفة زملائه ، وإنما يصف فرسه بصورة عامة ، ويعدّد منافعه في لغة أقرب إلى السهولة من شعر أقرانه ، وأدخل في الموسيقى من معلقات أضرابه ، حين يقول :

على مثله آتى الندى مخايلاً وأغمز سرى أى امرئ أربح^(١)
ويسبق مطروداً ويلحق طارداً ويخرج من غم المضيق ويجرح^(٢)
ولن نعرض لشعر الجاهليين في وصف الفرس فهو كثير تجده في كتب الأدب والمختارات لا يخرج عن أوصاف هؤلاء الذين ذكرنا ، وربما أضافوا إليها وصف القوائم المحجلة ، وعودوها بالرقى كما فعل سلمة الغطفاني ، أو جعلوها ذكية

(١) الندى : النادى - مخايلاً : مختللاً - أغمز : أشير .

(٢) مطروداً : يطرده فارس وراهه - طارداً : يطرده غيره أمامه - غم المضيق : شدة الأمر -

الفؤاد متوقدة الإحساس شديدة الشعور ، فأعاروها من نفوسهم مشاعر الحزن والفرح ، والثورة أو الهدوء ، وذلك رسم لعواطفهم وخلجات أنفسهم ينعكس على ما يرسمون .

والخيل الجياد كانت عندهم — كما قلنا — للصيد واللهو والحرب والقتال ، وكانت زينة وموضع فخر ، لذلك رسموا شياتها وصوروا سماتها ، ووصفوا خلقها ونبلها ، وكانت أوصافهم موضع بحوث اللغويين وأرباب المعاجم ، فجمعوا منها مادة غنية في مفردات اللغة لأوصاف الحيوان ، وكتبوا فيها مؤلفات واسعة ، يحسن الرجوع إليها للوقوف على عناية القوم بهذا الحيوان ، ومعرفة ما كانوا يصفون منه ، وموضع اهتمامهم بأجزاء الفرس ، ومبلغ إلتحاحهم في ذلك .

الأوابد

وأما الأوابد ، فقد وصفها شعراء الجاهلية كذلك فأمعنوا في تقريرها من أذهان السامعين ، وأهم أوصافها ما كان في شعر لبيد بن ربيعة ، والنابغة الذبياني ، وسويد اليشكري .

فأما لبيد ، فهو يرسم ناقته فيشبهها بالبقرة الوحشية في قوتها وضراوتها ، ثم يستطرد كما يفعل غيره إلى بقرتة ، فيقول إن السبع قتل ولدها حين كانت غائبة ترعى في القطيع ، فلما عادت رأت أن لا شيء يعوضها وليدها فثارت وهاجت ، وراحت تنوح وتبكي ، وهى ما تفتأ تذكر ذلك العزيز الذى طوته الأرض وغطاه التراب ، وتناثرت أشلاؤه . وزاد الشاعر في وصف الحزن فجعل الأمطار تشاركها في عبراتها وتبكي معها لبكائها ، وهكذا اجتمع على البقرة الحزن والبرد والمطر فلجأت إلى جذع شجرة نائية تقضى ليلها في جزع وفرع ، وظلت على ذلك ثمانية أيام حتى جف ضرعها .

وبالغ الشاعر في الجزع فتصور أنها سمعت صوتاً أفرعها ، وأنها عرفت أن

الصيادين في سبيلهم إليها ، وأنهم رسل المنية ، ووقفت تنتظر المعركة بقلب خافق ، فإذا بكلاب الصيد مسترخية الآذان مزينة بالقلائد في أعناقها قد هجمت عليها ، فوقفت لمن لتندودهن عن نفسها ، تستमित لتعيش ، فلما وثبت عليها كلبة من الكلاب ضربتها بقرنها فأدمتها وكان النصر .

وهذه الصورة الممتعة لم تعرض لأعضاء البقرة ، وإنما وصفت حزنها وشجاعتها ودفاعها عن نفسها واسماتها في سبيل حياتها . فهو لم يقصد إلى وصفها وإنما عرض لرسمها كوسيلة لا غاية ، يصف الناقة ويقربها جملة من البقرة الوحشية ليقفنا على حزن الناقة في مظاهرها وقوتها وشجاعتها ، فقرنها بالبقرة . وصورته بليغة في رسم وحشية الصيادين والبطولة الحارقة التي يمثلها هذا الحيوان في الدفاع عن نفسه .

وهذه الصورة على إيجازها وبساطتها تشبه صورة في الشعر الغربي الفرنسي رسمها ألفريد ده فيني لذئب أقبل عليه الصيادون في الليل وأرسلوا كلابهم إليه فأمسك بأجرأ كلب فيها ولم يحول عنه فكيه حتى فارق الكلب الحياة ؛ رغم الطلقات النارية والمدى الحادة التي كانت تمزق أحشاء الذئب . وليس من فرق بين الصورتين إلا في الفلسفة التي أضافها الغربي ، إذ امتدح نظرة الذئب إلى الحياة يتركها في شجاعة وصمت ، فهما كل العظمة وما سواهما جبن وخور ، وللإنسان أن يتخذ منها عبرة . وأما الشاعر العربي قبل اثني عشر قرناً فلم يفلسف قصيدته .

والنابغة الذبياني فعل مثل لبيد ، فرسم الثور الوحشي في مكان قليل الماء عديم الغذاء ، ووصفه ضامراً كالسيف ، قد اجتمع عليه كذلك البرد والخوف والحذر والجوع والظما ؛ فهو هلع خائف يتوقع صياداً يكتشف مكانه أو كلاباً تهاجمه . وقد وقعت الواقعة فهجمت عليه الكلاب وكانت معركة حامية طعن فيها الثور بطن الكلب فشقه وخرجه بالدم فأصبح كأنه سفود تركه الشرب على النار فاحمر واشتعل . وكان الكلب يعض قرن الثور ولكن من غير جدوى فقد مات

بعدها وهربت الكلاب يأساً وفزعاً لأنها لم تجد في الفريسة مطعماً ، فارتضت من الغنيمة بالإياب .

وقصة النابغة كقصة لبيد تصف الحيوان المطارد خائفاً جزعاً ، فاستبسلس واسمات فسلمت له الحياة . وقد استخدمت النابغة ألواناً جديدة في وصف الثور ، فجعل قرن الثور يشك فريسته كالبيطار يضرب بالمبضع ليشقى من الداء : شك الفريضة بالمدرى فأنفذها شك المبيطر إذ يشقى من العضد (١) كأنه ، خارجاً من جنب صفحته ، سفودُ شرب نسوهُ عند مفتأد (٢) فذكر الشاربين حول النار والسفود يحترق فيها بعد أن نسوه ، وصوّر البيطار يعالج داء العضد ، وكل هذا من حياة البادية وألوانها .

وسويد الشكرى ، وصف الثور الوحشى ضافى الذيل أسيل الخلد أسود الفخذين في حمرة تكسوهما جمالاً وتكسبهما رونقاً ، ورسمه حين يعرض له الصياد وكلايه ، فيولى عنها مدبراً ويجرى مسرعاً ، فتعجز عن لحاقه وتقعده عن إدراكه لأنه ابن الصحراء وأخو المفازات ، وله أن يسخر من أعدائه وأن يشمت من الكلاب ؛ فالشاعر يرسم مطاردة الصيادين للثور يجرى أمامهم وهم يلحقون به .

وامرؤ القيس ، مثل سويد ، يشبه ناقته والرحل فوقها بالحمار الوحشى ، فيرسم هربه من كلاب الصيد تشد وراءه وهو يخلف في حربه سخاباً من الغبار يكسو الكلاب ثياب الذل والخيبة ، فتقعده عن إدراكه ، وتنحدر إلى ظل أشجار الغضا يائسات من لحاقه لأنه كان يسابق الريح .

والشاعر يصف الحمار جائعاً ظامئاً طاوى الحشا ، خائفاً متوجساً وحذراً

(١) شك : طمن - الفريضة : قطعة لحم من مرجع الكتف إلى الحاصرة - المدرى : القرن - المبيطر : البيطار - العضد : داء يصيب العضد .

(٢) صفحة : جانب - سفود : حديدية يشوى عليها اللحم - الشرب : جماعة الشاربين - المفتأد : موضع النار التي فيها الشواء .

متربصاً ، لم ينل من الطعام ما يمسك به الرمق ، فهو كالضبع إذ يهيل التراب ليبيء فراشاً لنومه ساعة الظهيرة ثم يغفو كالأسير المقيد .

والطريف في هذا الوصف أن الحمار الوحشى يتصور خاتمته وقد أدركته الكلاب وأمسكت به فزقته تمزيقاً كما يمزق الغلمان ثياب الرهبان وهم يتبركون بهم ويلتمسون منهم المغفرة :

وأيقنَّ إنَّ لاقينهُ أنَّ يومه بذى الرمث إن ما وتنه يوم أنفس (١)

فأدركته يأخذن بالساق والنسا كما شبرق الولدان ثوب المقدس (٢)

وعلقمة الفحل ، يشبه ناقته بالظلم ، وهو ذكر النعام ، فيقول فيه إن لونه أحمر حتى لكأنه خضب بالحناء وقوادمه قصيرة الشعر ، وفمه ضيق رقيق الشفتين ، أصمّ لا يسمع الأصوات ، وصدرة كعصا الأوتار فى تقوسه ، دقيق الرأس والعنق ، ينشر جناحيه ويضمهما أبداً ، ويجمتع إلى فراخه الصغيرة ، وهم بروك ، فكأنهم أصل النخيل يهيجه المطر وتسوقه الريح ، ويدفعه الهواء الملبد بالغيوم ، فهو فى سير متواصل وسرعة لا تماثلها سرعة .

وعجيب أن تقع على هذا الوصف فى الجاهلية ، فهو شامل حافل ، يصور الحيوان بين أولاده على مقربة من عرسه اللطيفة ، ويرسم ما يكون فى هذه الأسرة الجميلة من تحاب وتواد ؛ ولسنا نرى قرب الشبه بين الظلم والناقعة إلا فى الطيش وسرعة الجرى ونخفة الجسم .

وهؤلاء الشعراء وصفوا ظواهر الأوباد ، وتطرقوا إلى وصف بعض الأعضاء ، فلعل مرد ذلك إلى أنهم كانوا يركبون فى صيدها والحصول عليها ليس غير ، فلم

(١) أيقن : الضمير عائد على الكلاب - ذو الرمث : مكان يكثر به شجر الرمث وهو

كالغضا ترعاه الإبل - ماوتنه : صابرته وجالدنه حتى الموت - يوم أنفس : يوم إرهاق الأنفس .

(٢) يأخذن : يعوضن - الساق : ما بين الكعب والركبة - النسا : عرق من الورك إلى الكعب

شبرق : مزق - المقدس : الرجل المطهر نفسه من الأدناس .

تكن لهم كما كانت الناقة والفرس يعيشون معها ويصبحون ويمسون عليها ، وإنما كانوا يرونها فارة هاربة تعرض عنهم كأنها ما تريد اللقاء ، لما كان يقع منهم من عدوان عليها وسعى في اقتناصها وقتلها ، فهي دائماً جاحشة نافرة .

وكان العرب على ذلك ينظرون إلى هذه الأوبد نظرة الحب والإعجاب والرضا ، يريدون أن يحصلوا عليها وما كان ذلك بالهين ولا باليسير فكانوا يطاردونها بكلابهم ويسعون إليها بقسيهم ، وربما جروا مسافات شاسعة في سبيل ذلك يملكون بالماء والصحراء والنبث والسراب ، ويلقون عناء في لحاقها ؛ فإذا طاردها وقعت معركة فيها نضال وغبار ودماء ، تخرج منها في أكثر الأحيان منتصرة وتقع الكلاب دامية قتلى .

وهذا ما صوره الشعراء فخلقوا صوراً لهذه المعارك لا تقل روعة عن صور النياق والحياد في متحف الوصف الفني ، لو تعمد مصور أن ينقلها من اللفظ والقصيد إلى الريشة والقماش لفاقت كثيراً من لوحات المتاحف العالمية .

* * *

ولم يقف الشعراء عند هذه الحيوانات وإنما تطرقوا إلى غيرها فرسموا لها صوراً خالدة وهي تتعارك فيما بينها ، كما يتعارك الإنسان ؛ ورسموا هذه الحروب التي كانت تشب بين العقاب والذئب أو بين العقاب والثعلب أو بين الصقر والقطاة . ووصفوا الذئب والغول والحية والثعبان والأسد . وسنعرض بعضه عرضاً سريعاً لنتهي منه إلى أن هؤلاء الشعراء الرسامين خانهم الحظ فحرمهم من مدارس الرسم فلم يمسكوا بالريشة ولم يقفوا أمام القماش ، ولم يغطوا أقلامهم من هذه الألوان وإنما نشثوا على الفطرة فرسموا كل ما رأوه بنجياهم ، فسأل في قصيدتهم وكان ذلك روعة في الفن لا تبدها روعة في شعر الأمم والأقوام لمثل عصرهم وثقافتهم .

العقاب

رسم امرؤ القيس في إحدى قصائده فرسه وأراد أن يقرب الصورة وأن يجسمها في الأذهان فجعلها شبيهة بعقاب ، وراح يرسم العقاب في أعلى الجبال والقمم وقد لمحت عن بعد ذئباً فانقضت من حائق ، وانحدرت إليه ، فهوت كما تهوى الدلو المثقلة بالماء قد انقطعت عراها فسقطت كجلمود الصخر ، وأرسلت مخالبا إليه وأنشبت أظفارها فيه ، فانسل الذئب من تحتها بعد أن نقب جنبه ، وأخذ يلجأ إلى الصخور ليختفي وراءها حيناً ، ويثير الغبار ليحجب عنه العقاب أحياناً ، ولكن المنية لم تخطئه ولم ينفعه التهرب فقضى !

وهذه الصورة الممتعة جاءت في متاحف الفن الغربي صورها الفنانون بالألوان فرسموا انقضاض العقاب على الذئب ، ولكنهم لم يوقفوا إلى هذا الكر والفر بين الحيوان المفترس والذئب المهارب ، لأن الصورة لا تتسع لمثل هذه الحركة ، ولم يبلغوا إلى هذه الحكمة التي أرسلها امرؤ القيس :

صبت عليه ولم تنصب من أمم إن الشقاء على الأشقين مصبوب (١)
وهذا عبيد بن الأبرص يصف العقاب كذلك فوق رابية عالية قد بلغ اليأس منها لشدة الشيخوخة ووفرة الآلام والأحزان ، فإذا كان الصباح أبصرت ثعلباً يجرى في فلاة قاحلة ، فطارت إليه وأدركته فطرحته على الأرض وجثمت فوقه وقتلته ، وثقبته بمخالبا الحادة ، وأرسلت أظفارها تنقب في صفحته وهو في هلع شديد وجزع عظيم ، يصيح ويستغيث ولكن من غير جدوى .

وهي لوحة جميلة كذلك تصور الثعلب في خوفه ، والعقاب في انقضاضاها عليه في شيخونحتها ، ولكن هذه الصورة شبيهة بأختها لا تختلف عنها أيما اختلاف

(١) صبت عليه : اندفعت إليه - أمم : قرب

رويناها لنقرب بين الشاعرين ، لعلنا نصور الغاية التي وقف عندها الشعر الجاهلي في مثل هذه الألوان ، كصيد الصقر للقطاة عند زهير بن أبي سلمى وغيره

الذئب

وقد وصف الجاهليون الذئب كما وصفوا غيره من حيوان الفلاة ، فرسموه طريداً شريداً جائعاً يائساً بائساً ، وسنعرض هنا شاعرين صوراه فأحسننا ، هما : الشنفرى والمرقش الأكبر .

أما الشنفرى فقد رأى فيه حيواناً تتقاذفه الفلوات وتتهاداه المفاوز ، يهوى في الأودية والجبال باحثاً عن قوت ساعياً إلى طعام ، فيعوى بائساً وينوح هزيبلاً ، ولا يردد صدهاء إلاّ إخوته الذئاب بيض الوجوه شيب الرعوس ، مشقوقة الأفواه كشقوق العصا ، عابسات الملامح كربة المنظر بشعة ، لأنها تعيش على الصدى وتتقوت بالسراب ، وتغضى على الجوع وتغض أجفانها على القذى .

والمرقش الأكبر ، يقض علينا أنه أوقد النار لشوائه فنزل به ضيف أطلس اللون أغبر ، فرمى إليه بقطعة من الشواء حياء لئلا يقال إنه بخيل على جلسيه ، فعاد الذئب جذلان فرحاً يهز رأسه غبطة وسروراً كأنه بطل عاد من الميدان بئىء كثير ونصر كبير . وهذه الأبيات تصور نفسية العربي في الكرم والسخاء وحب الأحذوثة الطيبة وجميل السيرة ، ولكنه لم يصف الذئب في أعضائه أو أجزاء جسمه .

وهذان الشاعران وصفا الذئب في يأسه وبؤسه وجوعه وهزاله ، فجعلاه يبحث عن القوت والعيش على موائد الكرام .

* * *

ولسنا نتعرض بعد هذا إلى وصف الغول أو الحية أو الثعبان أو الأسد ،

فهم رسموا الخوف منها والذعر لمنظرها . ولكننا نحب أن نجمل الرأى فى وصفهم للحيوان ، فهم صوروا الأنيس والمستوحش ، فأجادوا فى رسم أعضاء الناقة والفرس وأحسنوا فى وصف ما يكون من الحمار الوحشى أو البقرة الوحشية أو الذئب والعقاب . وقد وصفوا الأنيس كذلك فى قوته وضخامة جسمه وتحمله المشاق وبلوغه إلى الغايات ، ورسموا المستوحش فى جوع وظمأ وبأس وفقر كأنهم يفرقون بين الحيوان الذى يعيش فى كنف الإنسان على عز ورعاية وحب ، وبين الحيوان الذى يعيش هرباً من الإنسان على خوف وذعر ورعب ، أو لكأنهم يجدون فى الأنس صورة للرجل المترف والبطل المناضل والشجاع الفارس ، ويجدون فى المستوحش صورة للصعاليك واللصوص وقطاع الدروب .

ونلاحظ كذلك أنهم استخدموا فى تعبيرهم الألفاظ الجزلة والكلمات الضخمة عند ما وصفوا الحيوان ، فلما تغزلوا أو وصفوا أحاسيسهم وعواطفهم رقت تعابيرهم بعض الشيء ، ونختف وحشية الألفاظ — كما رأينا فى كتاب الغزل والرثاء ، وكما نرى بعد فى فن المديح إذ تشترك فى المعلقة الواحدة أو القصيدة عينها هذه المعانى جميعاً كأنها مجموعة من الأغراض والفنون تجمعها قافية واحدة . ونرى كذلك أنهم عمدوا فى وصف الحيوان إلى البحور الطويلة لعل الأبيات تتسع لمعانيهم كاملة فيستقل كل بيت بالخطوط التى أراد الشاعر بيانها .

ولعلنا أطلنا فى عرض الوصف عند الجاهليين ، وذلك لأننا نعتقد أنه كان دعامة متينة للصور التالية وأساساً عميقاً يبنى عليه الشعراء فى المستقبل شامخ مجدهم وعزهم ، يقلدونه ويأخذون منه على كثر الزمان والأحقاب .

افصل الثانى

العصر الجاهلى

وصف الطبيعة الميئة

الأطلال - الصحراء - الليل - السحاب والمطر

قامت حياة العربى على الرحلة والانتقال سعياً وراء الكلاً وبحثاً عن الماء، يقيم حيث يرى الرزق ، فيحل بجيمته وينصب أثافيه ويوقد النار ويعيش حتى ينضب هذا المورد فينتقل إلى غيره، ويعيش بذلك فى مساس مع الطبيعة وتجاوز مستمر ، يرمى النجوم فى أفلاكها، وينظر إلى السماء وكواكبها، ويراقب السحب والغيوم والرعد والبرق ، يعبر الصحراء ويمر بالوهاد والتلول والنجاد والسواقي والمياه ، فهو فى صلة مع هذه الظواهر لا تنقطع ، تقع عليها عيناه فى الصباح والظهيرة والمساء والليل كأنه راصد فلكى أو جغرافى باحث ! . .

وليس غربياً أن يقع على آثار من حل قبله أو يمر بالأماكن التى نزل بها غيره ، فىرى الأطلال والديار والدمن والأوطان بين نازح يرتحل ومنىخ يحط رحله ، فتتنزع الشاعر عواطف غربية لهذه الصحراء والبادية والحباء والحيام، ويرى فيها موضوعات مختلفة، تحدثه الأحجار عن حب سلف أو معركة نشبت أو قوم هوا أو غارات وقعت ، فينطلق لسانه بما يلفه من مكان أو يطوف برأسه من حوادث الزمان ، فيرسم الطبيعة ويصور ما تقلب عليها من حب وحرب وطعن وضرب وصيد وقنص .

وقد وصلت إلينا في الشعر الجاهلي أوصاف الأطلال والليل والسحاب والبرق والغيث والصحراء سنعرض لها في إيجاز كذلك، لتبين أين مكان القوم من هذه الصناعة أو هذا الفن .

الأطلال

عرض امرؤ القيس في معلقته إلى هذه الأطلال فوصف رسوم الديار وقد تقلبت عليها الرياح السافيات ، ورسم بعر الآرام تملأ العرصات صغيرة كحب الفلفل، فبكى لرحيل القوم وزفر في أسى ، واكن الدموع لا ترد الأحبة والأسى لا يقرب البعيد .

وعرض زهير بن أبي سلمى إليها كذلك فرآها قد انمحت ودرست ، وصارت بعد أن هبت الريح وجرى السيل كبقية الوشم في عروق المعصم ، وقد أصبحت هذه الأطلال موطناً للآرام ومرتعاً لبقر الوحش ينتقلن فيها من مكان إلى مكان ، ولم يبق من أثر الحبيبة وأهلها إلا هذه الأحجار السوداء وقد تقلبت عليها النار فاختلطت حمرتها بالسواد ، فأين دارها بعد عشرين عاماً ، وأين كانت تميمس وتختال ! لقد حملت الريح كل شيء ولم يبق في ذاكرة زهير إلا صورته البعيدة تعيش في خياله .

وأما لبيد بن ربيعة فقد وصف الأطلال كزميليه ، فرأى أن حججاً كثيرة تقلبت عليها فأصبحت مرعى الظباء والنعام والبقر الوحشى ، وغدت مرتع الأوبد بعد أن كانت موطن الجمال والحب والفتنة ، وقد تعاقبت الرياح والسيول على هذه الأطلال فكشفت عن آثارها القديمة، فغدت كأنها كتب تقادم عهد كتابتها فجدد الكاتب سطورها ، أو كأنها وشم ذهب أثره في اليد فأعادت المرأة شكله بالكحل تدره عليه . وما بدت هذه الديار واضحة المعالم حتى وقف الشاعر يتخيل الأحبة وقد عادوا مع الربوع واستوطنوا بعد غيبة ، فناجهم وساءل الرسوم

عنهم ، ولكن لا جواب ولا حديث ، وإنما الوجد والهوى يخيل معهما للعاقل ما لم يقع ، فكأن اللب قد سلب أو كأن العقل قد شرد .

والنابغة الذبياني ، نظر إلى الأطلال فتصور مجالس الحيوان ومعالفه والخدم ، قد خلت السبيل للماء المنهمر يغمر الدار ويبلغ إلى الأثاث ، فقد خلت من أصحابها وأخفى عليها الدهر .

والمرقس الأكبر ، رأى الدار خالية مقفرة ، احتمل أهلها ليلاً لأنهم منعومات لا يهتمن سفر النهار ، فالشمس شديدة على أجسادهن المترفة ، فغمر الوحش المكان وسكنته البقر ترعى العشب وتمرع في الأرض كأنها رجال من العجم يختالون في قلائسهم

والحارث بن حازة الإشكري ، أرسل أسفه حسرة حين رأى الديار خالية من أوانسها الفاتنات ، قد عمرتها قطعان البقر الوحشي بيضاء الظهور تبدو كأشعة الشمس في سطوعها ، وسكنتها الجياد فتركت فيها آثار وطئها ومواضع ركضها .

وثعلبة بن عمرو العبدى ، مغمور في الشعراء ، ولكنه ترك وصفاً رائعاً للديار الخالية ، يتلخص في أن فعل الحدثان وتعاقب الغيوث على الأرض تشبه فعل الأصباغ في زخارف البيوت ، أو تشبه رسم الكاتب يخلف رسوماً دقيقة وأشكالاً منمقة بدواته ، وهو يرفع يده ويضعها في هدوء وسكون لا تطرف عينه ولا يتحرك جفنه ، كأنه مأخوذ بما يصنع من رسم وتعبير . وهذه صورة موفقة لم يقع عليها الشعراء المشهورون .

وخلاصة القول في هؤلاء الوصافين أنهم اتفقوا في رحيل القطان عن الأوطان ، واتفقوا في الحيوان الذى حل بالمكان ، ولكنهم اختلفوا في رسم الأرض وقد تناوبت عليها الرياح والأمطار ، فأصبحت في نظر بعضهم كباقى ظاهر الوشم في اليد أو اختلاط الأصباغ بالأصباغ على يد فنان رسام أو كاتب ملهم ، وكلهم

ذكر حياة الأحبة قبل الرحيل فتصور النعيم والترف ، وتصور الأثاث ومراكنض
الحب ومرايع الحب .

الصحراء

رأى الأعشى أن الصحراء أشبه بظهر الترس في استوائها ، وأنها مقفرة
موحشة فما يسكنها إلا الجن يرحون فيها ويصخبون خلال الليل حين يلف السكون
عالم الصحراء ويخيم الظلام ، فهي وطنهم ومرتعهم ومحل عبثهم وديناهم . فإذا
أشرق النهار وعمت الشمس بعد ذلك أرجاء الكون اشتد القيظ والهجير
فما يطيقه إلا الفرسان الشجعان والأبطال الغطارييف ، فهم يقطعون الصحراء
ويقتحمون الأهوال والمخاطر .

والمرقس الأكبر يصفها سوداء لبعدها عن النبات وحرمانها من الماء، فالإبل
تسير في ضنك وإرهاق متعبة مكدودة ، والعابرون يصيبهم النعاس لخمود
الطبيعة وسكونها وشدة ما يكتنفها من ظلام .

وسويد بن أبي كاهل ، يصف القلاة كأنها رأس أصلع فيه بقايا من
الشعر ، ويرسم السراب يسبح في البيداء ويرقص على الجبال فهي مخوفة هائلة .

الليل

تخييل امرؤ القيس أن الليل حين يرخى ستائره على الكون شبيه بالبحر
حين يغمر السابحين ، وأن نجومه المتلألئة كأنها مربوطة بأمراس شديدة الفتل إلى
رأس جبل لا تريم ولا تتحرك، ثابتة، ثقيلة الوطء على الساهر المحزون . والشاعر
يجد في الليل موضعاً للفخر ، كأن الليل يبلو قوته وشجاعته .

والنابغة الذبياني ، يحسب الليل أبدياً لبطئه وطوله ، كأنه مقيم لا يرتحل ،
أو كأن الراعى الذى يسوق النجوم إلى غايتها قد نسى قطيعه وسافر فما يعود ! .

ومهلهل بن ربيعة ، أصابه الهم فطال سهره ، وجفاه النوم ، فكأن النجوم واقفة ، أو كأن كوكب الجوزاء كنياق تجمعت حول وليدها وفصيلها المكسور فلا تبرح مكانها ، أو كأن الفرقدين يدا رجل مقامر بغض لا تفنان عن الحركة حول القمار ولا تتجاوزانه .

وهؤلاء الشعراء اتفقوا في أن النجوم ثابتة بطيئة أبدية لا تتحرك ، ولكن أحدهم شبهها مربوطة بالحبل ، وآخر جعلها كالقطيع نسيه صاحبه ، والثالث شبهها بالنياق المتجمعة النائحة أو المقامر المأخوذ باللعب .

السحاب والمطر

ويرى امرؤ القيس أن المطر حين ينسكب يملأ الأرض ويغمرها فيخفي أوتاد الخيم ويغطي الأشجار فما تبدو منها إلا رء وسها يعلوها الزبد ، فيخيل إلى الرائي أنها رءوس مفصولة عن أعناقها تسبح في الماء . ووصف الأعشى البرق يلتمع ثم يخبو ، فرأى أنه كشعلة تومض وتنطفي أو شرارة تبدو وتختفي ، والسحاب العارض ظلمات متراكمة تسح وتنسكب فتملاً المياه كل مكان ، وتجاوز الحد فتبلغ الأمكنة العالية والكثبان المنتشرة .

وأما عبيد بن الأبرص ، فيرى أن البرق يضئ كالصبح في لمعانه ، وأن السحاب يدنو من الأرض حتى ليحسب الإنسان أنه يمس خطوطه بيديه أو يدفعه بكفيه :

يا من لبرق أبيت الليل أرقبه في عارض كمضى الصبح لمأح^(١)
دان مسف فوق الأرض هيدبه يكاد يمسكه من قام بالراح^(٢)
وليس في هذه الصور للسحاب والمطر كبير غناء إذا استثنينا وصف امرئ القيس

(١) العارض : السحاب الذي يمترض في الأفق - لمأح : لماع .

(٢) دان : قريب - مسف : مار على وجه الأرض - هيدبه : خيوطه - الراح : الكف .

(٣)

للرعوس المفصولة ، نكلها تشير إلى هذا السيل المتدفق الذى يغمر الأرض ويملاً الأمكنة . وقد وصف الجاهليون ما يصيبهم من برد أو حر ، ورسموا أثر الأمطار فى الرياض حتى يضمحك الزهر وينبع الثمر ويفوح العطر ويغرد الذباب ، وعنقرة العبسي يشبه الذباب بالشارب التمل حين يتغنى فى سروره ومرحه .

ونخلاصة القول فى شعر الوصف عند الجاهليين أنه قائم يصور حياتهم الحزينة ورسومهم الكثبية وديارهم المقفرة ، تعمرها الأوبد والوحوش ، وحين تصيبهم الأمطار تكسب السماء عبوساً والبيوت اضطراباً . وذلك لاضطراب عيشهم وشدة تنقلهم وضربهم فى أطراف الأرض وراء الرزق ، فلا قرار ولا هدوء كأنهم يكتنون بالشمس ويرزعون بالرمل والأنواء فتغدو حياتهم كالجحيم ، ولذلك كانوا يلمون بالنعيم وبالحنان ، وبالهدوء والشراب السائغ والوسائد الناعمة ونوم الضحى ، ويرون فيها مثلاً أعلى لآمالهم .

الفصل الثالث

العصر الجاهلي

وصف الخمر والسقاة

الأعشى — عمرو بن كلثوم — علقمة — الأسود النهشلي — عدى بن زيد

رأينا أن العربي كان في حياته الجاهلية على صراع دائم ونضال مستمر ،
طوراً يقف للطبيعة القاسية ، وطوراً للعدو الغازي والحارب المنتقم ، فكأن أيامه كما
يصورها شعر الجاهليين كانت حزينة في أكثر الأحيان . ولا بد لدفع هذا الحزن
في نظره من شراب ينسيه وخمر تعزیه فيسلو الآلام وينتعش للآمال . ولعله
شرب الخمر ليستقبل الموت أو يستلهم النشاط ، فهو يعتقد أن العمر قصير وأن
الفناء قريب منه يفجؤه في كل حين ؛ تعدو عليه الطبيعة أو يسطو عليه العدو .
ولسنا نملك التحقيق في أولية الشعر الجاهلي أو صحته لنعرف أول من شرب
وأول من وصف الشرب ، ولكننا نستطيع أن نقبل أن الشعر الذي بلغ إلينا يمثل
ما قاله الشعراء الجاهليون في مبادئه وأسسهِ — كما يقول العلماء اليوم — فنتخذه
وسيلة إلى دراسة هذا الوصف في الخمر والسقاة ، كما اتخذنا وصف الحيوان والطبيعة .
وقد أتانا أن أحسن الوصافين للخمر في الجاهلية هو الأعشى وأنه كان
زعيم المدمنين وسيد الشاربين ، أطال صحبة الشراب وعرف ما يتقلب عليه من
ألوان وصفات ، فجاء بصورة جميلة كانت موضع التقدير والتقليد خلال عصورنا
الأدبية كلها في قصيدته المشهورة :

- فقمننا ولما يصح ديكننا إلى جونة عند حدادها (١)
تنخلها من بكار القطاف أزيرقُ آمن أكسادها (٢)
فقلنا له : هذه هاتها بأدماء في حبل مقتادها (٣)
فقام فصب لنا قهوة تسكننا بعد إرعادها (٤)
كميتاً تكشف عن حمرة إذا صرحت بعد إزبادها (٥)
فجال علينا بأبريقه مخضب كفّ بفرصادها (٦)

فهو سينطلق قبل أن يصحو النيام ويصبح الديك مؤذناً بالفجر ، ويقصد خابية مترعة يحفظها خمار حريص تخير كرمها ، وجناها رجل روى خبير بصناعته مطمئن إلى بيعها ورواجها ، فيطلب إليه أن يترع الأباريق وأن يدفع له ثمنها ناقة أدماء ، فقام الخمار وصبّ قهوة تهدئ النفوس بعد ثورتها ، فكانت في لون الحمرة القانية حين تصفو رغوتها ويزول زبدها . وجال بها الساقى فطاف علينا بكؤوسه وهو مخضب الكف ، فشربنا حتى خارت القوى وسكن الجسم .
ويقص الأعشى بعدها ما وقع لزميله من شدة الشرب خلال النهار كله وهوناً من الليل ، في أسلوب رقيق ومشاهد متعاقبة حية ، تنبض بالنشاط وتضح بالحركة ، وقد نقل إلينا ما دار من حوار خلال ذلك :

-
- (١) ديكننا : ديك الفجر - الجونة : الخابية المطلية التي توضع فيها الخمر - حدادها : خازنها ، سمي كذلك لحفظه إياها .
(٢) تنخلها : تخيرها - بكار القطاف - مباكرة القطف والجنى - أزيرق : تصغير أزيق وهو صاحبها ويكنى به الروى لأنه أزرق اللونين - إكسادها : بوارها .
(٣) أدماء : ناقة يخالط بياضها سمرة - مقتادها : صاحب قيادها .
(٤) قهوة : خمر - تسكننا : تهدئنا - إرعادها : يقصد إزبادها وفورانها .
(٥) كيت : خمر يغطي حمرتها سواد - صرحت : صفت - إزبادها : فورانها وانتشار الحبيب فوقها .
(٦) مخضب كف : مصبوغ الكف بمخضاب الخناء - فرصاد : صبغ أحمر ، ويعلق على الترت الأحمر .

- فقال : تزيدوننى تسعة وليست بعدل لأندادها (١)
 فقلت : لمنصفنا : أعطه فلما رأى حرص شهادها (٢)
 أضاء مظلمته بالسرا ج ، واللبل غامر جدادها (٣)

وهذا وصف لطيف للشرب فى البادية ، وأحاديث تقع خلال ذلك على الزمن ، سبق لىها الأعشى والفضل للمتقدم .

وأما خمر عمرو بن كلثوم فهى صفراء من خمر « أندرين » مزجت بالماء الحار كما يفعل الروم فى بلدهم ، فأنعشت الشارب ورققت الطباع وأحالت الرجل الضيق سمحاً ليناً، والرجل الشحيح سخيماً كريماً :

تجور بذى اللبانة عن هواه إذا ما ذاقها حتى يلينا^(٤)

وعلقمة الفحل ، يطلبها معتقة معصورة من العنب كغيره ، ولكنه يجد أنها تشفى الصداع وتزيل الدوار ، ولا يصيب الرأس منها وجع ، ذلك لأنها من « عانة » قد لبثت فى دنها سنة كاملة . وساقى علقمة روى كذلك يغطى فه عند السقى بشيء من الكتان على عادة الأعاجم ، وأما لإبريقه فيشبهه ظيباً وقف على محل مرتفع قد لف بالكتان وكسر أنفه .

وقد أضاف الشاعر بهذا صورة للروم السقاة حين يغطون أفواههم بالكتان ولعل ذلك لئلا يشاركوا الشرب فى استنشاق عبيرها أو يفسدوا رائحتها بأنفاسهم ، كما يفعل الأطباء اليوم عند ما يحذرون خطر أنفاسهم على المريض ، فالخمر دواء فى رأى هؤلاء الشعراء ، يتناوله المرضى فى سبيل الصحة والقوة والعافية ، وليس للساقى أن يفسد الدواء :

(١) أى تسعة أباريق - عدل : معادلة - أنداد : نظراء .
 (٢) المنصف : الساقى والخادم .
 (٣) مظلة : خيمة - غامر : شامل - الجداد : الأهداب .
 (٤) تجور : تميل - ذو اللبانة : صاحب الحاجة .

تشقى الصداع ولا يؤذيك صالبا ولا يخالطها في الرأس تدويم (١)
والأسود بن يعفر النهشلى ، يصف السلافة وقد مزجت بماء الأمطار
ويصور الساقى ، يلبس في خصره منطقة ، ويحمل في أذنيه أقراطاً . وفي صوته
غنة جميلة ، وفي أنامله حمرة الفرساد . ثم يرسم المجلس وقد طافت بالشرب غانيات
كالدمى من رخام في جملهن أو كالبلدر في بياضهن ، نواعم يمشين بالأقداح الجميلة
فيرمين القلوب بالحاجر ، ويسقين بأحاديثهن وأقوالهن فيسكر القوم بخمر العيون
وخر الكؤوس وفتنة الأحاديث .

وهذا مجلس من مجالس الشراب لا يبده مجلس للعباسيين ، ففيه ساق
جميل وفتيات نواعم سواحر . ولعل هذا هو الذى أذهل الشاعر عن وصف
الخمر وعنتها وجمال الكأس وصورتها وحوار الشرب وأحاديثهم ، فكأن السكر
يكون بالعيون والألفاظ لا بالكؤوس والشراب .

وعدى بن زيد ، أقبل على الشراب كذلك ووصفه ، فصور الساقية قينة
في يمينها إبريق الخمر قد صفتته بالمصفاة ، ثم وصف الخمر سلافاً كعين اللديك
فزجه بالماء ولد طعمه ، ونظر إليه وقد علت سطحه فقاقيع حمراء كالياقوت
فأحبه ، ووصفه بأسلوب لطيف قال فيه :

بكر العاذلون في وضح الصب	ح يقولون لى : أما تستفيق ؟
ودعوا بالصباح يوماً فجاءت	قينة فى يمينها إبريق ^٢
قدمته على عقار كعين الد	يك صنئ سلافها الراوق ^٣
مرة قبل مزجها فإذا ما	مزجت لذ طعمها من يذوق

(١) الصداع والصاب : وجع الرأس - التدويم : الدوران .

(٢) الصباح : الخمر تشرب فى الصباح .

(٣) قدمته : صفتته بالفدام وهو مصفاة توضع فوق الإناء ليصنى ما فيه - العقار : الخمر -

السلاف : خالص الشراب وأوله - الراوق : المصفاة .

وطفا فوقها فقاقيع كاليا قوت حمر يزينا التصفيق (١)
ثم كان المزاج ماء سحاب لا صدى آجن ولا مطروق (٢)
وهكذا شرب الجاهليون خمرهم في الصباح عند الفجر ، واختاروا الحمرة لوناً
نا ، وأحبوها معتقة ، وفضلوا أن يكون الساقى جميلاً في وجهه عذباً في صوته ،
أن يكون على لباس خاص ، وأن تحيط الغانيات بمجلس الشراب . وبذلك
عرفنا ما كانوا يرغبون من لونها وتصفيقها . وما كانوا يحبون من جنسية ساقيا ولباسه ،
يشهدنا من عاداتهم في تقليد الفرس والروم في ذلك ، وأنها تكلفهم ثمناً غالياً ،
فلعلها وسيلة للمدح والفخر والاعتزاز للثراء والنبيل والفتوة . ولا بد كذلك أن يكون
في الشعراء من لم يستطع الإكثار منها ولكنه جارى غيره في وصفها وأسهم في
نعتها ، ليقال فيه ما يقال في السرى النبيل ، وشأنهم في ذلك شأن من يقول في
الغزل وهو لا يشعر بالحب ولا يكتوى بالبعد .

(١) التصفيق : نقل الشراب من إناء إلى آخر ليصفو .

(٢) صدى : متغير - آجن : راكد وفاسد - مطروق : مباح للناس .

الفصل الرابع

العصر الجاهلي

وصف السلاح والحرب

الرمح - السيف - القوس - الدرع - المعركة

السلاح

لا بد من السلاح في حياة البادية ، فهي غزو أو صيد ، يدافع به العربي عن نفسه . ضد عدوه من الإنسان أو الحيوان . وكان هذا السلاح معدوداً ينحصر في السيف والرمح والقوس والدرع والسهم والنبيل ؛ وهي من حديد أو شجر . وقد تعاقب الشعراء على وصفها واحترزوا بها ، فهي حطة للشجاعة والفخر ، ووسيلة المديح والقوة . وقد عني العرب بها عناية عظيمة فأطلقوا عليها الأسماء وأكثروا في ذلك ، حتى كانت لهم فيها كتب كثيرة تضم ثروة عظيمة من مفردات ، وكان من وراء هذه الكتب معاجم غنية واسعة .

وأوس بن حجر ، هو أحسن الشعراء وصفاً لها فيما ترى كتب الأدب ، فقد انصرف إلى الشجاعة والبطولة ، ورسم سلاحه كله في قصيدة طويلة ، سنعرض لمعانيها في شيء من الإيجاز لنبلغ أولى صورته ورسومه قال :

لقد أعددت للحرب بعدما كشر نابها ربحاً صلباً كأن كعوبه نوى التمر في

النعومة والملاسة صنعته رديئة فأحسن صنعاً ، فهو يلتمع في نصله كما يضيء مصباح الملوك في يوم عيد .

وأعددت درعاً ملساء أنفق ناصحها عاماً كاملاً في صنعها ، تشبه الغدير في تماوجه حين تعبث به الريح ويداعبه النسيم ، فتلتمع كأن أشعة الشمس قد صادفت مستشرفاً من نبت صغير منفرد .

وأعددت كذلك سيفاً مهنداً كأن حده برق تلالاً في وسط سحاب ، إذا سل من غمده اشتد لمعان جوهره كما يلتمع إناء الشرب وقد صنع من بلجين ، فكأنه في التماع صفحته ديبب نمل صاعد وآخر نازل .

وجهزت قوساً صنعت من فرع شجرة نبتت في جبل مجلل بالسحاب على ظهر صخر أصم فاكتسب صلابته من الصخر ، قطفه صاحبه في عناء كبير ، وخاطر في سبيل الوصول إليه ، لأنه من العود النادر في صلابته ومنعته ، فإذا بلغه قطفه ، وأمر شفرته عليه وأرسل سكينه فصقلها وجردها صفراء لا يعيها قصر ولا طول . فإذا تناول الرامى هذه القوس وأنبض الوتر سمع صوتاً حنوناً ، وإذا شد السهم ذهب بعيداً .

والكنانة التي أعدها ، حشاها بالسهم من فروع الأشجار الغربية ، وقد تأنق فيها صانعوها وتمهلوا في صقلها ، فركبت فيها النصال حمراً كجمر الغضا في يوم ريح ، فلما تمت كساهن ريشاً من بلاد اليمن أغبر يميل إلى السواد .

هذه عدة الشاعر : رمح ودرع وسيف وقوس وكنانة ، وصفها الشاعر في قصيدة واحدة وصفاً دقيقاً ، وذكر منبتها ومنشأها وقصة صنعها وأوغل في التفصيل حتى لم يترك قولاً لقائل . وقد أسهب في قوسه فخصها بثمانية عشر بيتاً لأنها كانت أحب سلاحه إليه .

والشماخ بن ضرار وصف قوسه وخص بها كثيراً من الأبيات ، قص فيها ما قام به القواس في تحسس الأشجار والبحث عن صلابتها ومنابتها والتعرف إلى

جدرها حتى إذا وقع على ضالته تناولها بالفأس ، ولبث عامين كاملين يثقفها ويقومها ؛ فإذا جاء الموسم أقبل بقوسه فخوراً مزهواً فباعها وهو داعم العين ، وأما الشارى فقد اختبرها فرأى أن وترها يترنم كترنم الثكلى ، وأنها تصوت حين يخترق سهمها جسد الظبي ، فلا مهرب له منها ولا تنجيه قوائمه من سلطانها .

والشماخ مثل أوس فى معانى قوسه ، اختار الشجر واصطفى القاطف ، ووصف ما بذل من الجهد فى سبيلها . وقد سار كثير من الشعراء الجاهليين على سنن أوس ، فجمع راشد اليشكرى فى قصيدته وصف السيف المشرف القاطع ، والقوس ذى الصوت الحنون ، والرمح الأسمر الصلب ، والدرع المضاعفة النسيج ، وفعل مثله ثعلبة العبدى فجمع فى قصيدته وصف الدرع والرمح والقوس والسيف .

الحرب :

وكثرت الحرب بين العرب فاعتبروها وسيلة من وسائل الرزق فيها الغارة والسلب والثأر ، بل فخرُوا بها وتمدحوا بشجاعتهم فيها ، فهى شارة القوة ودليل البأس ، وقد خلق الرجال لخوض غمارها ، فكانت تأكل منهم وتهد من قوتهم وتضعف من نسلهم ، ولذلك سعوا إلى كثرة الأولاد ليعوضوا على القبيلة شبانها وفرسانها ، وهكذا شغلت شعراءهم فوصفوها ورسوموا ما دار فيها من طعان ونزال ، وصوروا الخيول والأسلحة وما يقع من أصوات خلال المعركة ، وما تنتج من ضحايا ، ونظر كل منهم إليها نظرة خاصة .

وتروى كتب الأدب أن دريد بن الصمة أكثر الفرسان غزواً وأبعدهم أثراً وأكثرهم ظفراً ، وقد قتل يوم حنين ، فعاش فارساً ومات فارساً ، وقد وصفها وهو يحامى عن أخيه عبد الله قال : أقبلتُ على أخى والرماح تنوشه من كل حدب كما تقع الشوكات فى الثوب المنسوج ، فكنتُ كالناقة تقبل على ولدها الذبيح تشمه وتتحمسه . فلما دخلتُ الميدان تناوأتني الرماح وشققت جلدى ، ولكننى صابرتُ وطاعت الخيل عن جنته حتى تفرقت جموعهم ، والمرء لا بد فان ، فعلام الخوف ؟

فطاعتُ عنه الخيل حتى تنفست وحتى علاني حالك اللون أسود^(١)
 قتال امرئ آسى أخاه بنفسه ويعلم أن المرء غير مخلد^(٢)
 وهكذا وصف غبار المعركة حوله وصور الخيل متألبة عليه ولكنه ناضل حتى
 انتصر .

واشتهر عنزة العيسى في أساطير البطولة حتى ألصق به شعر كثير ، وقد
 نقل إلينا في ديوانه أنه وصف فرقة كثيفة هاجم بها فرقة أخرى ، وصور الرماح
 المتساقطة والقنا المتهاوية كأنها شهب تتساقط فتثير الظلام ، والخيل الضوامر تعدو
 عوابس بفوارسها المدججة بالسلاح ، وقد خف الحلم وثبت الفرسان للنزال .
 ونقل إلينا في شعره كذلك أنه حمل بمهره على قلب الكتيبة المعادية فزقها ،
 وما زال يناضل حتى اصطبغت الخيول الدهم بالحمرة من دماء الفرسان ، وكأنها
 تتعثر في مستنقعات الدماء ، وعاد منتصراً يحمل رأس عظيم الكتيبة ، وخلف
 الأعداء كالنياق المذبوحة طعمة للجوارح :

حتى رأيت الخيل بعد سوادها حمر الجلود خضبن من جرحاها
 يعثرن في نقع النجيج جوافلاً ويطأن من حمى الوغى صرعاها^(٣)
 فرجعتُ محموداً برأس عظيمها وتركتها جزراً لمن ناواها^(٤)
 وقد صور شعراء آخرون حروبهم ضد القبائل ، فرسموا قوة الخيل وسرعة عدوها
 حتى لكأنها تبارى الحمر الوحشية وتقتحم الهيجاء ، وحتى كأن أسنتها حبال^٥
 يتمتع بها ماء البئر لشدة طولها وإدراكها الغاية . وصور بعضهم الحرب كزهير بن
 أبي سلمى في سوعاتها وويلاتها ، فهي كرية ، وهي كالنار تأتي على الهشيم ، وهي

(١) تنفست : تفرقت - حالك اللون : يقصد به الغبار الكثيف من وقع الحوافر حوله .

(٢) آسى : سوى - مخلد : خالد .

(٣) النجيج : الدم الأسود المتجمد - حمى الوغى : شدة الحرب .

(٤) جزر : ج جزور ، وهي الناقة تجزر - ناواها : ناواها وعاداها .

كالرحى تطحن كل شيء، وكالناقة تلد أشأم الغلمان . وجعلها امرؤ القيس
عجوزاً ليس لها خليل، وشمطاء دميمة قبيحة قد جزت شعرها وتنكرت فهي بغیضة
لا يقربها لاثم أو محب .

وكثيرة هي أشعار العرب في الحروب ، وصل إلينا بعضها ، وضاع كثير
منها مثل : حرب داحس والغبراء، والبسوس . والذي بقي يدل على ما ضاع ، فقد
انتثر في معلقات الحارث بن حلزة وعمرو بن كلثوم وقصائد الأخنس التغلبي
والحارث المرى وعامر بن الطفيل ؛ وملاً صفحات التاريخ والأدب ؛ وهو سفر
ضخم في البطولة لو سعيينا إلى تحقيقه وجلاته ودراسته لكانت لنا صور تبذ
الملاحم اليونانية والرومانية والفارسية والهندية ، كالإلياذة والإنياداة والشاهنامة
والمهابهارتا في دقة الوصف وعمق الخيال .

وكلها تصور هذه الحياة الخزينة المتشابهة من غير تكلف أو صنعة ،
فإذا ابتسمت حيناً كانت صورة الأمل الذي خالج قلب الشاعر، وبارقة الحلم التي
راودت خياله إلى حين .

افصل الخامس

الوصف في العصر الأموي

الأخطل - الفرزدق - جرير - العجاج -

رؤبة بن العجاج - الراعي - ذو الرمة

دخل العرب في طور جديد حين ظهر الإسلام، فأصبحوا يقاتلون من أجل الدين في جيوش كبيرة، وكانت لهم وقائع ومعارك ضاعت أوصافها أو وقفوا دون رسمها لجدّة الموضوع وخطورة المقال، فنحن لم ننع على شيء فيها فحرمنا هذه الثروة. ولما كان عصر بني أمية ظهر الشعراء في العراق وانتقلوا إلى الشام، ولكنهم ظلوا على الأوصاف القديمة الجاهلية، فركب الأخطل ناقته وشبهها بالثور الوحشى أو بحمار الوحش، ووصف المعركة بين الثور وكلاب الصيد كما فعل الجاهليون قبله، لذلك ألحقه بعض النقاد بالشعراء في الجاهلية.

وجمد الفرزدق عند القديم البدوي من الألفاظ والصور، فوقف على الأطلال كما وقف امرؤ القيس حتى لكانه سرق عباراته حين يقول:

وقوفاً بها صحبى علىّ وإنما عرفتُ رسوم الدار بعد توهم
يقولون: لا تهلك أسى ولقد بدت لهم عبرات المستهام المتيم
فقلت لهم: لا تعذلونى فإنها منازل كانت من نوار بمعلم
فهو لا يحس إحساس القدماء ولكنه يقلدهم في قصيدهم ويتصنع الشوق إلى
ديار الأحبة، على أنه في مفرداته يبدو أقل غرابة وأخف إمعاناً في القديم منهم،
فقد وصف الذئب وقال:

وليلة بتنا بالغريين ضافنا
 تلمسنا حتى أتانا ولم يزل
 ولو أنه إذ جاءنا كان دانياً
 ولكن تنحى جنبه بعد ما دنا
 فقاسمته نصفين بيني وبينه
 على الزاد ممشوق الذراعين أطلس
 لدن فطمته أمه يتلمس
 لألبسته لو أنه كان يلبس
 فكان كقيد الريح بل هو أنفس
 بقية زادي ، والركائب نعس

ونحن حين نوازن بين هذا وبين ما قاله المرقش الأكبر نجده يحذو خطوه
 ويتبع خطوه ، فذاك يوقد النار ويشوى للذئب ، وهذا يقاسمه الزاد . على أن
 المرقش وصف الذئب بعدها فرحاً جذلان يهز رأسه غبطة لهذا الذي أصابه ،
 والفرزدق يجد فيه وسيلة لامتداح كرمه فحسب ، لا يلم بالذئب إلا في قوله :
 ممشوق الذراعين أطلس ، ولا يرهبنا وصفه له ، كأنه كلب أو قط أو أى حيوان
 آخر . وحين نقفه إلى جانب الشنفرى نجد الشاعر الجاهلي قد وصف الذئب
 فأدخل الرعب في قلوبنا ، وصور اللون والملامح والقسمات ، ولم يدعه إليه ولم
 يقاسمه زاده .

والفرزدق وصف الذئب ثانية فقاسمه الزاد ووقف منه موقف الحذر ،
 وعاهده عهداً لا يخونه ، ونحب أن نروى هذه الأبيات شاهداً على الوصف عنده :

وأطلس عسال وما كان صاحباً
 فلما دنا قلت : ادن دونك إنني
 فبت أسوى الزاد بيني وبينه
 فقلت له لما تكشر صاحكاً
 دعوت بناري موهناً هاتاني
 وإياك في زادي لمشتركان
 على ضوء نار مرة ودخان
 وقائم سيني من يدي بمكان :
 نكن مثل من يا ذئب يصطحبان
 أخين كانا أرضعا بلبان
 أتاك بسهم أو شباة سنان

والغريب أن الفرزدق وضع في لفظه وابتعد عن الإغراب في مفرداته ، وهو

يقص حكاية الذئب ، ولعل ذلك كل ما يحمده له هؤلاء النقاد الذين يريدون سهولة التعبير في العصر الأموي ، ولكنهم معنا في أنه لم يصنع شيئاً في الوصف كما صنع الأجداد .

وجرير بن عطية ، لا يختلف عن زميليه في الوصف ، فقد وقف كذلك على الأطلال ، ووصف رحيل الأحبة وبكى الظعن ، واكنه كان صورة للقدماء . ويفسر النقاد هذه الظاهرة بأن الأمويين وجدوا في الشعر الجاهلي تمثيلاً لماضيهم فأصبحوا يعتزون به ويشتدون في روايته ومن ثم يسعون إلى تقليده ، وبعضهم يذهب إلى أن حياة البداوة الماضية هي التي ساقته إليهم النصر وملكهم زمام الفرس والروم ، لذلك تمسكوا بأهدابها وحنوا إليها ، وساعد على ذلك نهوض الرواة وعلماء اللغة إلى البحث عن هذا الماضي الجاهلي وعناية الخلفاء به وحبهم له ، فجهد الشعراء الأمويون في أن يقلدوه إرضاء للعلماء والخلفاء ومن بيدهم سلطان الذوق الأدبي ، ومن ثم كان الحمود والوقوف عند معاني الجاهليين حيناً ، والتمسك بالفاظهم حيناً آخر ، فعدت الحياة الجاهلية ثانية إلى دنيا الأدب ، وحمل هذا اللواء القديم كبار الشعراء في هذا العصر .

وسواء أصحت نظرية النقاد أم كانت فرضية تحتمل النقد ، فإننا نرى طبقة من الشعراء في هذا العصر عادت إلى القديم وتغنت بشعره ، وزادت عليه في غريب المفردات ، ونقصده بهذه الطبقة العجاج وابنه رؤبة في الرجز ، وراعى الإبل وذا الرمة في القصيد .

أما عبد الله بن رؤبة التميمي البصرى ، المعروف بالعجاج ، فقد وصف الأطلال في أراجيزه ، وصور الحياة البدوية كما صورها القدماء ، فرسم الصحراء وسراياها وغيثها وبرقها وحيوانها ، وعرض للفرس والناقة وبقر الوحش والذئب والتمر والأسد والنسر والجراد والذباب والبعوض . . .

وهذه الأراجيز شديدة الأسر في مفرداتها ، تغوص على الغريب حتى يخيل إلينا

أن الشاعر لم يغادر في معاجم اللغة قافية إلا صادها . وأما معانيها فقديمة تقوم على التشخيص والتمثيل الحسى ، تتأثر امرأ القيس والمهلhel سواء في وصف الليل وأهواله أم في رسم النافذة وعمار الوحش وثور الوحش . والجلديد فيها أنها أوردت المشتقات والجموع ومشاكلة الألفاظ ، كأن الرجل صنعها للغة لا للشعر ، الكثرة الإغراب فيها ، والتكلف في سبكها والتصنع في رصفها .

وابنه رؤبة بن العجاج ، سار بهذه الأراجيز سيرة أبيه حتى لقد بلغ بعضها أربعمائة قافية ، جعلها لأبواب الشعر كلها حتى مديح الخلفاء العباسيين ، فزج بين الموضوعات ووازن بين الأشخاص والأهمار ، وفضل الممدوح على البحر أو النهر ، ووصف البادية في سراها ومقازتها ، وأطال فيها حتى هام بها اللغويون ، ففيها كل ما يريدون من غريب الأفعال والأسماء والمصادر . وهى على هذا تضم صوراً بارعة في وصف الموضوعات ، لكن الوصول إلى معانيها يقتضى نبش المعاجم وفهم الصور . ولهذا أحبها الخلفاء وقربوا الشعراء لإجادتهم في سبكها إحياء لماضى اللغة ومعانيها . وسرى أن الشعراء هاموا بها حتى في العصور العباسية فسعوا إلى تقليدها وضربوا في ذلك بسهم كبير ، كأبي نواس وابن المعتز وأبي فراس الحمداني .

وأبو مرقال الزفیان ، فعل ما فعله العجاج وابنه رؤبة ، ولكنه كان أسهل لفظاً ، وأقل إغراباً ، على أنه لم يصنع جديداً مبتكراً في المعاني البدوية القديمة ، ولا نحب أن نروى من هذا الرجز ، فهو يوجبنا إلى شرح وعناء ، نحن عنه في غناء لضيق الصفحات ، وإنما نحيل إلى « مجموع أشعار العرب » ، وقد طبعه في صدر هذا القرن المستشرق أهلورت ، ففيه شفاء الغليل .

وأما راعى الإبل عبيد بن حصين النيمرى ، فقد ظعن إلى البادية ووصف لإبل بأساليب القدماء ، ورسم حياة الرعاة ، فسمى بالراعى . وكان تصويره للإبل شبيهاً بصنع القدماء في ضخامتها وقوتها ، ولكنه أضاف إليها وصف الحادى والراعى

وتأليف القطيع . وعهدنا بالجاهليين أنهم يصفون الناقة بمفردها تسير ، فيشبهونها بحيوان الوحش ، ولكن الشاعر صور عادات البدو في نحر الإبل والشجاعة تصويراً يخيل معه إلى السامع أن الشاعر مفتون بها كما فُتِن الغزلون بمعشوقاتهم ؛ وهو مع هذا لم يخل من إغراب في اللفظ دفع اللغويين إلى جمع شعره والعناية به والتعلق بمفرداته .

والشاعر ذو الرمة هو الذى حمل لواء البادية كما قالوا، فاتجه إلى وصف الإبل وعاج حيناً على أوصاف القدماء في رسمها كامرئ القيس وعنترة وزهير ، ثم برع في وصف الطبيعة وألوانها ، فعمد إلى الدمن والأطلال والرياح والأمطار ، وهو حين يصف ناقته في قصيدته المشهورة « ما بال عينك منها الماء ينسكب » يجعلها هزيلة تشكو الضعف والمرض والأوجاع ، ولكنها تسبق الإبل ولا يصيبها وفي ولا تعب ، وإنما تجرى كالريح العاتية وتثب كما يثب حمار الوحش حين يعدو كالمجنون أو الهارب بالإبل حين الغارة لعله يبلغ العين . فإذا بلغها وصف الضفادع والحيتان والصيد والصقر والحبارى والحمار الوحشى والثور والظليم .

هذا كله في قصيدة واحدة ما نرى لها شبيهاً في أدبنا العربى قد جمعت أوصاف الحيوان وأنماط التشبيهات ، فكأنها متحف يخصص بهذه الألوان الحية ، وقد أعجب بها الشعراء منذ القديم فتبنى جرير أن تنسب إليه ! ذلك لأنها مقسمة مرتبة مهذبة . وأكثر معانيها صورة للشعر الجاهلى ، لكنه نظمها من جديد وأجاد في عرضها لتشمل شعر الطبيعة كله ، لعلها تغنى عن الدواوين مجتمعة ، ولا تغنى كلها عنها . فهو حامل لواء الوصف في العصر الأموى ، وقد قال فيه ابن قتيبة : « إنه أوصف الناس لرمل وهاجرة وفلاة وماء » .

الفصل السادس

العصر العباسي

وصف الحيوان

النياق - الخيل - الأسد - الذئب - النحل - الكلب - الديك - الفهد -
الصقر - السمك - البعوض - الطير - الهر والجردان .

انتقل الحكم من دمشق إلى بغداد فاشتدت صلة الحكام بالفرس وحضارتهم وزاد اتصالهم بالتقاليد الأعجمية ، واصطبغت الطبقات الرفيعة في الشعب بصباغ الحياة الجديدة ، وكان على الشعراء أن يسيروا مع هذا التيار الجديد فحسب ، لولا أن تياراً معاكساً راح ينحو نحو القديم يدفعه الحنين إلى أمجاد العرب ولغتهم ومغانيمهم القديمة ، فظهر في الأدب أنصار لهؤلاء وهؤلاء ، ودخل الوصف في معمعان هذه المعركة بين القديم والجديد .

والواقع أن الشعراء أخذوا بالقديم والجديد معاً كأنهم يسعون إلى إرضاء الطائفتين ، فظلوا في بعض الأبواب يقلدون ، وراحوا في بعضها يجددون ، بل هم حاولوا محاولات بارعة فأخفقوا حيناً وانتصروا حيناً . وسنعرض لوصف الحيوان عندهم لعلنا ننتهي إلى الموازنة بينه وبين ما كان عليه في الشعر الجاهلي والأموي .

النياق

وقد رأينا وصف النياق والإبل والخيل على السنة الجاهليين والإسلاميين ،

يصفها الشعراء ، لأنهم عاشوا على مقربة من البادية ، أو لأنهم أرادوا أن يشاركوا في وصفها أو يبعثوا الحنين إلى ذكرها . فقال أبو نواس يصف ناقته :

ولقد تجوبُ بي الفلاة إذا صام النهارُ وقالت العُفْرُ (١)
شذنية رعت الحمى فأتت ملء الحزام كأنه قصرُ (٢)
تنثى على الحاذين ذا خصل تعماله الشولان والخطرُ (٣)
أما إذا رفعتهُ سامدةً فتقول : رزق فوقها نسرُ (٤)
أما إذا وضعته عارضة فتقول : أرخى خلفها سترُ
وتسفَ أحياناً فتحسبها مترسماً يقتاده أثرُ (٥)

فهذه الناقة تجوب به الفلاة في الظهيرة وقد اعتدل النهار واستراحت الظباء في القيلولة ، وهي قوية متينة ، تحرك ذنبها فتصيب فخذها ، فكأنه نسر إذا رفعته جادة في السير ، أو كأنه ستر إذا أرخته . وتدنو من الأرض فكأنها تبحث في الرسوم عن أثر . وناقاة أبي نواس هذه كناقاة الجاهليين في ضخامتها وطول ذنبها وقوتها ، وفي غرابة مفرداتها ، ولو تركت من غير نسبة إلى شاعر معين لذهب الظن إلى أنها قيلت في العصر الجاهلي أو الإسلامي .

ووصف مسلم بن الوليد ناقته سريعة قوية تضرب بذنبها يمينا وشمالا ، وتسرع في إرقالها ووخدها . ووصفها ابن المعتز فرأى فيها ما يرى الجاهليون فقال :
رأيتُ انهمار الدرِّ بين فروعها كما عصرتُ أيدي الغواسل أثوابا
كانَّ على حلابهنَّ سحائباً تجود من الأخلاف سحائباً وتسكابا

(١) صام النهار - اعتدل - قالت : استراحت - العفر : الظباء .

(٢) شذنية : منسوبة إلى شذن : فحل بايمن أو موضع فيه - الحمى : موضع الكلاء .

(٣) الحاذين : تشنية حاذ ، وهو جانب الفخذ - الشولان : رفع الناقة ذنبها - الخطر : رفعها إياه مرة بعد أخرى وضربها به حاذيها .

(٤) سامدة : جادة في سيرها - رزق : حمام ورؤف للوقوع .

(٥) تسف : تدنو من الأرض - المترسم : الناظر إلى رسوم الدار .

خوازن نحض في الجلود كأنما تحمل كثناناً من الرمل أصلابا
 فهي قوية ضخمة يسيل الدرّ بين فروجها كما يسيل الماء من الثوب على
 أيدي الغواسل ، وهي مكنتزة اللحم . كأنّ في الجلد كثناناً من الرمل ، وقديماً
 أحبّ العرب النياق الضخمة المكنتزة .

ووصفها في موضع آخر فأعاد معاني القدماء وصورهم قال :

حتى طويت على أحشاه ناجية كأنما خلقها تشييد بنيان
 كأن أخفافها والسير ينقلها دلاءُ برّ تدلت بين أشطان
 لها زمام إذا أبصرت جولته حسبتُ في قبضتي أثناء ثعبان
 إلى هلال تجلت عنه ليلته باريه صورهُ في خلق إنسان
 فجعلها ترتع في مفازة بعيدة ، وهي وثيقة التكوين ضخمة الجسم كأنها
 بنيان مشيد ، وكأن أخفافها دلاءُ برّ تدلت بين الحبال . وهذه الصور جاهلية
 صرفٌ تعلّق بها ابن المعتز فكان شديد الشبه بالأجداد ، وكان شبيهاً بزملائه في
 العصر العباسي إذ لم يخرجوا عن حدود القدماء في وصف الناقة .

الخيل

وصف العباسيون الخيل فأوغلوا في رسمها كذلك ، وأبو نواس جعلها مطية
 إلى الصيد ليس غير . وأما أبو تمام فقد أكثر من وصفها فجعلها شديدة
 الحركة والطيش كأنما خالطها مسٌّ من جنون ، أو كأنها شربت خمرًا فهي سكرى :
 كأنما خامره أولقٌ أو غازلت هامتة الخندريس (١)
 عسوّذة الحاسد بخلاّبهِ ورفرفت خوفاً عليه النفوس
 فهو يجبه ويعوذه وخوف الحسد ، ويرى أن النفوس تميل إليه لجماله . ورسم
 في مكان آخر اختيال الفرس وجعله ملآن بالصلف والكبر ، ووصف حوافره

(١) أولق : جنون - الخندريس : الحمر العتيقة .

وصلبه وناصيته . ولونه بالحمرة قد بدا فيها الشيب ، وهو طائش مجنون نشيط ،
وبعضه أسود كاللجى وبعضه أبيض كثوب الحرير الفارسى ، قد سالت غرته كما
سال الماء :

قد سالت الأوضاحُ سيل قرارة فيه ففترقُ عليه وماتق (١)
صافى الأديم كأنما أهبسته من سندس برداً ومن إستبرق (٢)

وبعد هذه السرعة التي تفوق الريح في جريانها ، يرسم الشاعر غرة الفرس
وأذنه ثم كفله الململم وذنبه الضافى . وصور منخره كالكبير ، يخوض الوغى
في حلة حمراء ، ويسبح في غمرة الموت ورحى المنية تطحن .

ووصفه الشاعر في ديوانه كذلك فقال : بأن الحصى تطير من تحته لسرعته
ذا ما حثه السوط . ورسم لحمه الحديدية يلوكها كما تلوك الفتاة مساوكها ،
ويتبختر كأنه يمشى بكم مسبل ، محجل في قوائمه غير العجين .

والبحترى وصف الخليل فأبدع في تعداد سماتها وشياتها . قال إن جواده جارى
الحياد فطار سباقاً ، جذلان تلطمه غرة كأنها البدر في تمامه ، وأذناه متقدمتان
كأنهما عينان يرى بهما . يختال ويكب ويشب ، طويل العنان والحزام ، معاطفه
لينة كأنها الخيزران ، وفي غرته بياض كأنه الشيب في حفرق رجل لاه عجائب
غزل . وأما صهلته فكانها الرعد في ازدحام الغمام ، فالعجائب تقسمت بحاسنه .
ورسمه في قصيدة أخرى فجعله كالميكك في ضخامته ، يهوى في سرعته كما
تهوى العقاب حين ترى صيداً ، ويتنصب كالصقر؛ تحسب البدر في جبينه ،
وذنبه طويل يسحبه كالرداء ، صافى الجلد كصفاء السيوف في حمرة كخمر
معتقة . وصيله كالموسيقا بل يفوق نبرات المغنين المشهورين . وهو جذلان ينفذ
خصلة الشعر في غرته ، وشجاع يغشى الوغى فلا يحوج إلى جنة أو ترس ، ليس

(١) الوضع : الغرة - القرارة : القاع المستدير يجمع فيه ماء المطر .

(٢) السندس : ضرب من نسيج البرز أو من رقيق اللدياج - الإستبرق : اللدياج الغليظ .

له مقتل ، وإنما يقتل حيث يصيب . وجسده في لونه كأنه نمال متتابعة سوداء
وجراء :

مصغ إلى حكم الردى فإذا مضى لم يلتفت وإذا قضى لم يعدل
وإذا أصاب فكل شيء مقتل وإذا أصيب فما له من مقتل
وهو في قصيدة فائقة : أشقر ساطع يغشى ظلمات الحرب فينيرها كالكوكب
المتأجج ، وشيائه كأنها مطلية بالدماء القانية ، يهيج السوط كما تهيج ريح
الجنوب حريق الثبت ، جذلان أبداً ، تحمسه الجهاد إذا مشى ، دقيق الخصر
ضامر البطن ، على المتن وقوائمه وثيقة .

وهذه الصور تلتخص في سرعة الفرس وطيشه ، ولون جلده ، وغرته ،
وضخامته ، وذنبه الطويل ، ودقة خصره ، وضمور بطنه ، وعلو منته . وهي لا تزيد
على ما عند الجاهليين فيما رأينا من وصف الخيل ، بل إن الجاهليين سبقوا في هذا
الميدان ، ولم يصنع المتأخرون كبير أمر ، إلا في وصف الصلف والكبر .

الأسد

أصبح الأسد في العصر العباسي موضوعاً للهو والصيد والرياضة ، وشارك
الخلفاء والأمراء في ذلك ، وروضوا خيولهم على لقائه رابطة الجأش ، فجعلوها تعيش
إلى جانب قفصه ومرنوها على رؤيته كل يوم . وقد وصف الشعراء حفلات
الصيد هذه ، ورسومها صوراً مختلفة للأسد .

أما البحري فقد ذكر الفتح بن خاقان وخروجه إلى صيد الأسد فقال :
غداة لقيت الليث والليث مخدرٌ يحدّ ناباً للقاء ومخلباً
يحصّنه من نهر نيزك معقل منيعٌ تسامى روضه وتأشبا (١)

(١) تأشب الروض : تجمع والتف بمضه على بعض .

إذا شاء غادى عانة أو غدا على عقائل سرب أو تقنص ربربا (١)
يجرّ إلى أشباله كلّ شارق عبيطاً مدمى أو رميلاً مخضباً (٢)
شهدتُ لقد أنصفته يوم تنبرى له مصلتا غضباً من البيض مغضباً
فلم أر ضرغامين أصدق منكما عراكاً إذا الهيابة النكس كذباً (٣)
هزبر مشى يبغى هزبراً وأغلب من القوم يغشى باسل الوجه أغلباً (٤)

أقبل الفتح بن خاقان على الأسد ، فرآه في معقل حصين وفي قوة منيعة يستطيع أن يفترس حمار الوحش أو بقر الوحش ، فهو في كل يوم يقدم إلى أشباله صيداً جديداً ، ولحماً طريئاً يسحبه على الرمل فيمتزج بالتراب . وليس في هذه الصورة من الأسد إلا بطولته واقتراسه . لم نلمح فيها شيئاً من أعضائه أو أجزائه ، ولعله قد جعلها ليوازن بين ضرغامين : ممدوحه « الفتح » والأسد المقصود ، فرأى أنهما قد مشى أحدهما إلى الآخر في شجاعة وبطولة مشى الند للند .

وابن المعتز حين وصف الأسد فعل مثل ذلك ، فصوّره مخيفاً يهزم الجيوش ويجرّ كل ليلة فريسة إلى أولاده يفرحون بها ، وهو شجاع جرىء يحسب الألف واحداً ، يُرهب الدنيا زئيره فما يستطيع أحد أن يعدو على الأرض أو يسرى فيها إذا كان هناك :

يزعزع أحشاء البلاد زئيره ويذهل أبطال الرجال من الذعر
إذا ضمّ قرناً بين كفيه خلته يعانى عروساً في غلائلها الحمر
وهذا جميل في وصف الحيوان وفريسته كعراك العرس والزوج في غلائلها الحمر
والمتنبى وصف أسداً قتله بدر بن عمار فرسم لونه الأحمر ، وصوّر زئيره

-
- (١) العانة : الأتان أو القطيع من حمر الوحش - العقائل : ج عقيلة وهي أكرم كل شيء - السرب : القطيع من الظباء وحمر الوحش - الربرب : قطع بقر الوحش .
(٢) كل شارق : أى كل مطلع شمس - العبيط : اللحم الطرىء - الرميل : ما خلط بالرمل
(٣) الضرغام : الأسد - الهيابة : الجبان - النكس : الرذل .
(٤) الهزبر : الأسد القوى - باسل الوجه : شديد العبوس .

يبلغ النيل والفرات وعيناه كنار جماعة من الناس ، يعيش وحده عيش الرهبان ، لكنه لا يعرف التحليل والتحرير ، فإذا سار وطئ الثرى تهباً وصلفاً كأنه طيب يجسّ يد العليل في رفق :

يطأ البرى مترقفاً من تهبه فكأنه آس يجسّ عليلاً (١)
ويردّ عُفرتَه إلى يافوخه حتى تصير لرأسه إكليلاً (٢)
وتظنه مما يزجر نفسه عنها لشدة غيظه مشغولاً (٣)

وهذا الشعر المتجمع على قفا الأسد يصير حول هامته إذا سار وانتصب فكأنه ملك الغابة قد حلّى رأسه بالتاج ، وهو لشدة صوته نظنه نفسه كأنه مشغول عنها . وهذه الصورة فيما نرى أبرع ما رسم الأدب العربي للأسد في بلونه وعينه ومشيته وزئيره وزجرته ، وشعره وهامته ؛ فهي على إزهاها حسية مادية تتجاوب مع رهبة الألفاظ وقوة التعبير .

أما ابن الرومي فقد وصف أسده بأنه غليظ كره ، وأذنه مائلة كنصف هلال ، تخضع له الأسود حين يزجر ، ضخم شديد ، رحب الصدر ، ذو كاهل أوبر قوي الظهر مكتنز اللحم ، وحيد في الفلاة مخوف ، وفي ذلك براعة وإيجاز .

الذئب

وصف البحترى ذئباً لقيه في الفلاة فرسم لونه الأسود المغبر وعظامه المقصضة ومثنه المقوس ، وذنبه كالحبل يجره وراءه ، قد طواه الجوع فلم يُبق فيه إلا العظم والخلد والروح . تصوّت أنيابه وفيها الموت كما يفعل المقرور حين يرعده البرد . وكان في الظن أن يرهب الشاعر هذا الذئب الجائع ، ولكنه وقف له كأنهما

(١) البرى : التراب - التيه : العجب - الآسى : الطيب .

(٢) الغفرة : الشعر اجتمع على قفاه - اليافوخ : الرأس - الإكليل : التاج على رأس الملوك .

(٣) الزجرة : تردد الصوت وشدة الصياح .

ذئبان ، كلٌ يحدث نفسه بصاحبه . فاجما عوى الذئب أرسل سهمه إليه فأورده
منهل الردى :

سما لى وبنى من شدة الجوع ما به ببیداء لم تعرف بها عيشة رغد
كلانا بها ذئب يحدث نفسه بصاحبه والجدد يتعمسه الجدد
وقد أرانا البحترى فى هذه الصورة لون الذئب وعظامه ورهبتة وأسمعنا صوته
كالرعد ، ثم قتله ، وفيها يتفوق على ما رسم الفرزدق لذئبه ، ويشبه رسم الشنفرى
فى وصف اللون والجوع والهزال ، ولكن البحترى صور عظامه ومدته وصوت
أنيابه فزاد فى الهول والرعب . والشريف الرضى لا يخرج فى تصويره الذئب عن
هضم الأوصاف والحدود .

« « »

وقد وصف الشعراء العباسيون حيوانات أخرى كانوا يرونها خلال الصيد
أو تقع لهم فى الرحلة والأسفار البعيدة ؛ فقد دخل الترف فى حياة الشعب الإسلامى
وأصبح يحاول إلى صيد البر والبحر ، فيسافر أو يجرى وراء الظباء والثعالب والأرانب
ويقصد إلى الآجام فى صيد الكواسر والأسود ، ويسعى إلى الأنهار ليصيد
السمك وطيور الماء ، واشترك الشعراء فى هذه الرحلات أو فى هذا الصيد ،
وأرادوا أن يشاركوا فى وصفها فكانت لهم صور فى أدبنا تدعو إلى الدراسة والتقد ،
سنعرض لبعضها هنا لأننا لن نستطيع الإمام بها جميعاً فذلك باب واسع من
أبواب الأدب ، تضحكم خلال القرن الرابع حتى ما يستوعب ولا يحصى .

النحل

عاش أبو نواس مع الطبيعة وسكر بمحاسنها وشرب فى كل مكان ، فقصده
إلى الصيد والطرده والشرب ، وتغنى بما رأى وخلف لنا لوحات بارعة خلال خمرياته
غزله نجد فيها صورة للحيوان لم نعهدها من قبل . فقد رسم النحل فى صورة

لطيفة تغدو وتجيء وتجمع العسل من الأزهار قال :

ترعى أزاهير غيطان وأودية وتشرب الصفو من غدر وأحساء
 فطسُ الأنوف مقاريف مشمّرةٌ نُحوص العيون بريئات من الداء (١)
 من مقرب عشراء ذات زمزمة وعائذ متبع منها وعذراء (٢)
 تغدو وترجع ليلا عن مساربها إلى ملوك ذوى عز وأحياء (٣)
 كل بمعقله يُمضى حكومته في حزبه بجميل القول والراء
 حتى إذا اصطك من بنيانها قرص أروينها عسلا من بعد إصدااء (٤)

فالنحل ترعى أزاهير الغيطان والأودية وتشرب الصافي من الغدران ،
 وهى فطس الأنوف بشعة الوجوه غائرة العيون ولكنها سليمة من الداء ، فيها الحبلى
 وفيها ما ولد منذ قليل وفيها ما يتبعها ولدها وفيها العائلون . وهذه المملكة كل
 حكومة فيها تعمل برأى وقول ، ولكنها مع ذلك تبنى مجتمعة قرصاً من العسل
 تقدمه شهداً حلواً للناس . وهذه الصورة بارعة فى الديمقراطية وبناء الممالك
 لا تشبهها صورة فى الآداب الأخرى .

الكلب

ووصف أبو نواس كلب الصيد ، فصوره تصويراً مفصلاً لم نعهده
 عند الجاهليين ، فقد رأينا أنهم يسمعوننا نباحه وهجومه وتضمخيته القاسية حين
 يموت فى فكى الطريدة ؛ ولكن الشاعر العباسى يصف عيشه فى بيت سيده وقد
 أنس إليه ، ويرسم من أجزائه ما وصف الشعر الجاهلى من الخليل والنياق ، قال
 أبو نواس .

(١) مقاريف : غير حسان الوجوه - نحوص العيون : غائراتها .

(٢) المقرب : الذى قرب ولدها - العائد : الحديثة النتاج من الظباء - المتبع : ما يتبعها ولدها .

(٣) المسارب : المراعى .

(٤) اصطك : تم وكل - القرص : حج قرصة وهى فى الأصل القطعة من العجين .

أنعتُ كلباً أهله في كده قد سعدتُ جدودهم بجمده -
 وكل خير عندهم من عنده يظلّ مولاة له كعبده -
 بيت أدنى صاحب من مهده وإن غدا جلته ببرده
 ذا غرة محجلا بزنده تلذ منه العين حسن قدّه
 تأخير شذقيه وطول خده تلقى الطباء عنتاً من طرده
 فهو حبيب لسيدته أثير عنده بفضل سعيه وكده ، بيت أقرب الناس إلى
 مهده فإن أصابه برد جلله ، وهو ذو غرة محجل بزنده ، يلذ الرأى حسن قدّه ،
 فشدقاه عريضان وخده طويل ، وهو شديد على الطباء في الطراد . وهذه الصورة
 جميلة تصف جسم الكلب وأعضائه وعمله في الصيد فتعيد إلى الذاكرة وصف
 الشعراء الجاهليين للخيل وعنايتهم بها وحبهم لها .

الديك

ووصف أبو نواس كثيراً من الديكة ، فأحسن في وصفها لما كانت تهبجه
 في الصباح إلى الصبوح وتدفعه إلى الشرب وتنهبه إلى طلوع النهار ؛ فقال :
 أنعتُ ديكاً من ديوك الهند أحسن من طاووس قصر «المهدى»
 أشجع من عادى عرين الأسد ترى الدجاج حوله كالجند
 يقعين من خيفته للسفد له سُقاع كدوى الرعد (١)
 منقاره كالمعول المحمد يقهر من ناقره بالنقد (٢)
 عيناه منه في القفا والحد ذو هامة وعنق كالورد
 له اعتدال وانتصاب قدّ كأنه الهداب في الفرند (٣)

(١) السفد : نزو الذكر على الأنثى - سقاع : صوت .

(٢) النقد : ضرب الطائر بمنقاره .

(٣) الهداب : الطرف مما يلي طرته - الفرند . السيف .

فهذا الديك الهندي جميل شجاع ، يقف في الدجاج كما يقف الملك في رعيته^(١) ، منقاره كالمعول يقهر به خصمه ، وهامته وعنقه كالورد الأحمر ، وأما قامته واعتداله فكأنهما السيف المستقيم ، وصوته كدوى الرعد ، شديد الهيبة مطاع .

الفهد

وابن المعتز ، جاره في أكثر أوصافه للصيد ، فصور الفهد وكان يقوم عندهم مقام الكلب فقال :

ولا صيد له بوثابة تطير على أربع كالعذب
وإن أطلقت من قلاذاتها وطار الغبار وجدّ الطلب
فزوبعة من بنات الرياح تريك على الأرض شدا عجب
تضم الطريد إلى نحرها كضمّ المحب لمن قد أحبّ

وهكذا ترى أنه أسبغ على الفهد صورة حبيبة تصف حبه لهذا الحيوان وفرحه في الصيد بما يصطاد ، وسرعته في اللحاق بالطريدة كأنه يطير على أربع فيثير الغبار كزوبعة من بنات الرياح . وحين يعود الفهد منتصراً يضم الطريدة إلى نحره كما يضم المحب حبيبته . وهذا تصوير بارع لابن المعتز لا تنقصه الحياة ولا يتخلف عنه النشاط والحركة .

الصقر

ووصف ابن المعتز الصقر فقال :

(١) صور الصنوبرى ديكه بصورة قرينية من هذه فجعله عقيد الملك من نسب كسرى وقد عقد على رأسه التاج ، يلبس المطرف ويرخى الذوائب .

وأجددك لم يخلُ من تأديب يرى بعيد الشيء كالقريب^(١)
 يهوى هوى الدلو في القليب يناظر مستعجم مغلوب^(٢)
 كناظر الأقبل ذى التقطيب رأى أوزاً في ثرى رطيب^(٣)
 فطار كالمستوهل المرعوب ينفذ في الشمال والجنوب^(٤)

فاستخدم الصور الجاهلية القديمة في سرعة الصقر إذ شبهه بهوى الدلو في
 البئر أو نظر الأحوال إلى الأوز حين يطير إليها كالمرعوب . وعمد إلى الرجز
 واللفظ البسيط .

ورسم الشاعر كذلك صيد السمك ، فوصف الجدول والحصى والزهر
 والشبكة والشص ، فرأى النهر فضياً والحصى نقياً والتربة ذات ثرى وضى ،
 والزهر مبتسماً . وقد اصطاد السمك بشبكة لها مقلة تلحق بالقصى من الحيوان .
 وقلده في ذلك السرى الرفاء .

البعوض

ووصف ابن المعتز البعوض ، فحدث عن أثره في جسده فقال :
 بتُّ بجهد لا أذوق الغمضا مسهداً يضرب بعضى بعضاً
 قد قطع القرقس جلدى عضاً منتمشاً بقرسه منقضا^(٥)
 كشرر القدح إذا ما ارفضاً يدمن إسخاطك حتى ترضى
 ولا تمالك من الضحك حين تتصور المسهد يضرب بعضه بعضاً ، وحين

(١) الأجدل : الصقر .

(٢) القليب : البئر - الناظر المستعجم : الذى ينظر إلى الشيء كأنه يعرفه .

(٣) التبل : الحول في العين .

(٤) المستوهل : الفزع .

(٥) القرقس : البعوض . - القرس بكسر القاف : صغار البعوض .

يقطع البعوض جلد النائم عضماً وينقض كشرر القدح . ولكن هذا الضحك مؤلم لأنه يصور أكثر ليالى الشرق فى الريف خلال الصيف .

الطير

وابن الروى وصف الطير شرعاً على حوض المنية ، وأصدقاه الصيادون يهيمون بصيده ضاحكين هازلين معهم آلاتهم وقسيهم ، والطبيعة تبكى لمصرع هذا الحيوان وما ينتظره على أيدي الصيادين فيقول :

فظل صحابى ناعمين ببؤسها وظلت على حوض المنية شرعاً
وقدرت نقت شمس الأصيل ونفضت على الأفق الغربى ورسماً مزعزعاً
وودعت الدنيا لتقضى نحبها وشول باقى عمرها فتشعشعا

ونحن نرى فى صورة الطبيعة والصيادين رسماً بديعاً مؤثراً أعاره ابن الروى من نفسيته وحزنه وحبه للحيوان وشعوره الرقيق حياله .

وقد وصف الصباى الببغاء محبوسة فى القفص كالغادة العذراء وما لها من ذنب فى هذا الحبس إلا أنها ضحية الحب ، قد تميزت بالبيان عن كل مخلوق سوى الإنسان . ورسم السنجاب فجعله خفيفاً على النفوس تشبهى قربه العيون كأنه أخو الشباب .

وصور الصنوبرى الورشان ، ذلك الطائر المغرد ، الذى يودع المسامع ما شاءت وما لم تشأ من الألحان ، فجعله فى رداء من سوسن وقميص مزرر فى ظهره يبدو فى لون السماء ، وجيده فى لون الفرقدين ، وهو يدعو الصبح لأنه يمل الكرى فيمدّ صوته حين يمدّ جيده . ورسم القمرى فى لون الغمامة يستغنى بهديله فى غسق الدجى عن مطرب الأوتار .

الهر والجرذان :

ولم يغفل الصنوبرى عن الهر والجرذان ، فقال بأن الجرذان خلقت منذ الأزل للعبث والفساد والأذى والحراب تنقب فى الأرض والسقف والحائط وتأكل كل شئ وتشرب كل ما ترى وتقرض الثياب . أما الهرّ فهو ليث الغاب كالقنفذ فى ازبارة وكالدئب فى افتراسه والحية فى انسيابه ، ينصب طرفه أبداً قبل الزوايا وإزاء السقوف والأبواب ، ينتضى ظفره فى حربه :

يسحبُ الصيدُ فى أقل من اللمح ولو كان صيده فى السحاب
غاسل وجهه بإحدى يديه مستعين فى غسله باللعباب
ويعى الصوت إذ يعى فى طوى وهو يرنو إذا رنا من شهابٍ
ولهذا الهر قرطق وقلادة ونخصاب ، كما نرى للهرة فى عصرنا بالبيوت العربية ،
وهو صاحب بل أعزّ الأصحاب وأوفى الأحباب .

وهناك حيوانات أخرى وصفها شعراؤنا ، فقد رسم أبو نواس فى ديوانه الثعلب والبازى والعنكبوت ، وصور غيره الذباب والبغال والحمير والضفادع ، وللحية فى ديوان ابن المعتز وصف لطيف شهبها فيه بالغصن يعلوه نور وورق ، ولكننا لن نعرض لها هنا ، لضيق الصفحات ، مكتفين بما أوردنا من صور رسمها هؤلاء النوابغ فأبدعوا حتى لكأنهم يرسمون بالريشة والألوان ألواحاً لو عرضت فى متاحف العالم لحازت السبق وربحت الخلود .

ونحن حين نوازن بينهم وبين أجدادهم نجد أنهم اتخذوا أول الأمر صور الجاهليين سنناً يسرون عليه ، ثم أفاضوا فى الاختراع والابتداع ، فالتمسوا ألوانهم من حضارة الفرس وحياتهم الجديدة ، فجمعوا ثروة القديم إلى ثقافتهم المكتسبة ، وبلغوا ذروة وقف عندها الوصف ققصرت بعدهم أجنحة الشعراء فى التحليق حيناً من زمن ليس بالقصير .

الفصل السابع

العصر العباسي

وصف الطبيعة الميثة

السحاب والمطر - الأنهار والبرك - السفن - الأزهار والثمار - الرياض - الليل والأفلاك - الأطلال - القصور والأبنية - الماء كل والأطعمة - مرافق البيت

ألم العباسيون بالبساتين والرياض ، فعاشوا في هذه الطبيعة الجميلة ، ينعمون بالزهر والنور ، وينظرون إلى السماء ، وأفلاكها ، والأنهار والبرك والقصور المشيدة ، والسفن ومرافق العيش الجديدة ، فكانت حياة ناعمة مترفة لكثير من طبقات الأمة ، وذهب الشعراء لمذاهب بعيدة في وصف هذا الكون الجديد ، واستطاع بعضهم أن يخلق بجناحين في آفاق حديثة ، وقعدت ببعضهم أجنحة الشعر عن التحليق ، فلبث يردد صور القدماء وألفاظهم ، وسنعرض هنا نماذج لهذا الشعر الذي انطلق منذ فجر العباسيين حتى وقف الاختراع والابتداع ، وأصبحت هممة الشاعر في أن يجتد وأن يعيد وأن يقلد .

السحاب والمطر

نظر الشعراء في هذا العصر إلى السحاب كما نظر القدماء فرأوا فيه قاتل المحل وجالب الخير والغيث والنعمة . والشرق العربي كله ما يزال ينظر اليوم إلى المطر والسحاب نظر القدماء فيرى فيهما قتلا للجذب وسبباً للخصب .

قال أبو تمام يصف ديمة إنها سمحة القياد سكوب ، يستغيث بها الثرى
المكروب . ووصف السحاب في مكان آخر فقال إن الدنيا صاحت : لقد أتى
قاتل المحل ، وارتدى الروض بالبقل ، وانطوت بطون الأرض على خمل . فاهتزت
ارتياحاً لرقعه كما تهتز البكر للبعل .

ورأى ابن الرومي في السحاب غطاء للأغوار والنجوم أقبات تهادى في
سيرها فرأت الأرض فيها حياة بعد همود وغيثاً بعد إجمال ، وقال الناس هأنه
فتوح السماء قد ظهرت لتطفيء الغليل . وفي قصيدة ثانية قال الشاعر :

إن هأنه السحب يرسلها سائقها كيفما يشاء فتجود بدارها ، وتنبجس الأرض
وينشق الأديم فتقتضى حقوق القيعان وبعد عقوق ، وتجرى المياه فوق الربى
والوهاد ، وحينئذ يتضحك الروض الكئيب ويتفق الزهر والنور ، ويتنسم الخلق
النفحات ويضوع المسك ، ولايرد الطير في كل مكان كأنه طرب مشوق يتعلل
بالغناء .

والباحثى أجاد في وصف السحابة والبرق فرسهما رسماً موفقاً حين قال :

ذات ارتجاز كحنين الرعد	مجرورة الذيل صدوق الوعد
مسفوحة الدمع بغير وجد	لها نسيم كنسيم الورد
ورزة مثل زئير الأسد	ولمع برق كسيوف الهند
جاءت بها ريح الصبا من نجد	فانتشرت مثل انتشار العقد
فراحت الأرض بعيش رغد	من وشى أنوار الربى في بُرد
كأنما غدرانها في الوهد	يلعبن من حبابها بالترد

ففيها الرعد وصدق الوعد ، وهى تبكى بدمع مسفوح بغير وجد ، ونعيمها
كنسيم الورد ، وزئيرها كزئير الأسد ولعبها كسيوف الهند ، وقد حملتها ريح
الصبا من بعيد فانتشرت كما ينتثر العقد ، فأنعشت الأرض بالنور والزهر وأصبحت
الغدران منها يرقصن بالحباب كما يلعب بالترد . وهذه أوصاف حسية شبه كل

شئ منبها بشئء يضارعه ثم كساها عاطفة الحنين والدمع والوجد وجعلها للخير والبركة والعيش الرغد . ولكنه لم يصف شكلها وضبابها ، والرسوم التي تنشأ فيها ، وإنما رسم تأثيرها في الأرض وخدمتها للدنيا فقلد القدماء وجمع فيها كل ما قالوا في مثل هذا الموضوع ، ولكنه أفاض في التشبيهات وزاد في رقة اللفظ فيجاءت عبارته تغني غناء كما قال النقاد في شعره كله .

وأما ابن المعتز فقد حسب أن السحائب لا تمل البكاء ، وأن دموعها تجري في حدود الثرى ، يقدح منها البرق كالسيوف الهندية ، فإذا دنت من الأرض جليجل الرعد أجش كصوت الرّحا ، ثم سحّت فارتدت الأرض بالنور والزهرة ، وشبّ النبات واكتهل . وفي قصيدة أخرى ، قال الشاعر إن البرق يضحك فيها فتمتصل الأرض بالسماء كما تتصل الخيم بالحبال ، فكأن رعدا مستعبر يبكي في صخب ، وهي أبدأ مثقلة بالماء تمهادى فوق أعناق الرياح ، ينفثح بها النور وينتشر بها العطر .

وقد وصف الشعراء البرق بمثل طرف العين في سرعته أو الشهب في هبوطه أو كأنه حية تصدّعت أحشاؤها - كما قال ابن المعتز - أو كأنه سيوف لمعت لكنها تفعل في الأرض فعل الوجد بأحشاء الحزين . وأبو تمام يرى البرق يتحول إلى ماء وهو نار ، يرضى الثرى ويسخط الغبار ، ويرى البحرى سرى البرق البرق كنبض العرق ، وابن المعتز يجد أن البرق يشقق السحاب كما يصدع المشرفى هامات الرجال ، أو كأنه سنا قبس في جذوة من نار .

الأنهار والبرك

وما دمنا قد عرضنا للسحاب والمطر فسنعرض للجداول والأنهار والبحيرات مما وصفه هؤلاء الشعراء ؛ فقد وصف ابن المعتز دجلة عند الفيضان فرآه كالبحر تخر لفيضانه الجدران كأنها تسجد أو ترقع ، والسقوف تمطر والأرض أعين

تنبع ، والبستان فجوة يسبح في مائها الضفدع . ووصف شاعرنا بركة غناء
تموج فيها الماء ، كأنها في الدجى مرآة قد انصقلت ومقبضها الخليج .

ووصف البحترى بركة المتوكل كأنها واحدة في الدنيا يليها البحر في العظمة ،
وهي تنافس دجلة في الحسن وتباهيه كأن جن سليمان أبدعوها ، فلو أن بلقيس
مرت بها عرضاً لقاتل لأنها الصرح تمثيلاً وتشبيهاً ، تنصب فيها دفقات الماء كالخيل
تخرج من جبال مجربها أو كأنها الفضة البيضاء سائلة من السباتك ، فإذا مرت
الريح أبدت فوقها صوراً كالدروع مصقولة الحواشي ، وإذا انعكست فيها
النجوم حسبتها سماء ركبت فيها النجوم ، تغوص الأسماك فيها وتغيب ، وتعطفها
الرياض كريش الطاوس في تلوينها وزينتها :

فحاجب الشمس أحياناً يضاحكها وريق الغيث أحياناً يياكيها
إذا النجوم تراءت في جوانبها ليلاً حسبت سماء ركبت فيها
ووصف المتنبي بحيرة طبرية فصور الموج مُزبدأً والطيور فوق حبابها
كفرسان بلق تخونها اللجم ، فحين تضربها الرياح تحسب أن بها جيشين
يتحاربان أحدهما هازم والآخر منهزم . ووصف أبو فواس الماء والبرك فقال :

انظر إلى زهر الربيع والماء في برك البديع
وإذا الرياح جرت عليه في الذهب وفي الرجوع
نثرت على بيض الصفا ثح بيننا حلق الدروع
فشبهه صفحة البركة - كما فعل البحترى - بالدرع وحلقه تبدو كالأمواج

الضعيف حين تهب عليه الرياح مقبلة مدبرة .

وأكثر الشعراء وصفاً للنهر في هذا العصر هو الصنوبري ، إذ رسم نهر

« قويق » في حلب عدداً من المرات في شعره ، هجاهُ ونخر منه فقال :

« قويق » إذا شم ريح الشتا ء أظهر تيباً وكبراً عجيباً
وناسب دجلة والتيل والافرات بهاء وحسناً وطيباً

وإن أقبل الصيف أبصرته ذليلاً حقيراً حزيناً كثيراً
إذا ما الضفادع نادينه قويق قويق! أبي أن يجيبا!
تغوص الجراداة في قعره وتأتي قوائمها أن تغيبا!

فهو يصف النهر في الشتاء على كبر وتبه كأنه يفاخر دجلة والفرات والنيل
لكثرة ما ينصب فيه من سيول وأمطار ، ولكن الصيف يكشفه فيبدو ذليلاً
حقيراً كثيراً كثيراً تناديه الضفادع فلا يجيب وتغوص الجراداة في قعره فلا تغيب ،
وهذه صورة جميلة في هجاء النهر . وله في البركة والفواراة صورة مليحة مستحسنة
نرويها هنا :

وبركة منظرها يطربُ للماء فيه ألسن تعرب
تحسبها من طول ترجيعها دائماً تنشد أو تعطب
كأن فواراتها وسطها إذا ترامت لعبٌ تلعب
من يمنة فيها ومن يسرة قنطرة واقفة تذهب

فالفواراة خطيبة متكلمة تنشد أو تغنى أو كأنها تلعب ، بل هي قنطرة تقف

وتنتقل .

السفينة

ورسم الشعراء ما كان يجرى على الماء من سفن كثرت لوفرة الأنهار ،
فسالت فيها كما تسيل السيارات اليوم في دروبنا ، وكان هذا الرسم شبيهاً بصور
القدماء لما يسبح على الرمل من هودج . وبشار يقول إن تيار البحور يتلاعب
بالسفينة ، وربما رأيت نفوس القوم تجرى من جريها لرعبهم بتمايلها . وصورها
مسلم بن الوليد كما يصور الجاهليون طبقات الرمل ، بل جعلها تسير من الإشفاق
في جبل وعر تشنى وتختلج ويجدافاها يسوقانها كجناحين ، فهي كالعقاب

تدلت من هواء على وكر ، وحين تواجه الصبا تمشى متمايلة كمشى العروس إلى الخلد .

وابن الرومي شبهها بالنسور في أجنحتها الخفاقة وخرطومها تطير على أبقائها وظهورها بمصطخب التيار ، فسيرها يشبه النعائم إذا تمهلت . وأما أبو نواس فقد وصف سفينة كانت للأمين في صورة الأسد ، كما كان له غيرها في صورة العقاب والفرس فقال :

سخر الله للأمين مطايا لم تسخر لصاحب المحراب
 فإذا ما ركابه سرن برآ سار في الماء راكباً ليث غاب
 أسداً باسطاً ذراعيه يعدو أمرت الشدق كالح الأنياب (١)
 لا يعانیه باللجام ولا السوط ولا غمز رجله في الركاب
 عجب الناس إذا رأوه على صرة ليث يمرّ مرّ السحاب
 فهي لا تسير بلجام بل تجرى بغير سوط ومن دون أن يغمزها راكب برجليه
 فتتمر مر السحاب فلم يخرج عن وصف القدماء للمطايا ، وإنما فضلها عليهم
 إذ رسمها تجرى على الماء وتلك تضرب في الرمل .

ووصف البحتری السفينة فقال : إن فرعون ظن أنه إله النيل ولكنه لو رأى ما يركب المعتز لرأى قصراً على الماء يسبح :

إذاً لرأى قصراً على ظهر لجة يروح ويغدو فوق أمواجه يجرى
 وأما مهيار الديلمي فيقول إنها تعودت الطوي لا تأكل إلا الماء ، فإذا كان
 الفرس لا يطيق غير فارس واحد فإن الفرسان عليها مزدحمون ، تشق الماء كالحية
 في التراب ، ولها زيد من سرعتها ، فإذا رحلت بالشرع مرّت كأنها من جوافل
 النعام ، فهو يوازن بينها وبين الناقة فيجد أن العليق عليها حرام ، ويسمى الزبد
 الذي ترسله السفينة لغاماً كزبد الناقة سواء بسواء . وفي هذا برهان على أن صور

(١) أمرت الشدق : واسع الفم .

البادية لم تبرح مخيلتهم ، فلم يبتعدوا عن النياق والنعام والعليق واللغام وهم ينظرون إلى السفن تعوم على الماء .

والسرى الرفاء لا يختلف عن الشعراء في وصفها حين يقول :

كل زنجية كأن سواد الليب ل أهدي لها سواد الإهاب
تسحب الذيل في المسير فتختنا ل وطوراً تمر مرّ السحاب
وتشق العباب كالحية السو داء أبقّت في الرمل إثر انسياب
فرسمها زنجية لأنها مطلية بالقار تسحب الذيل في المسير وتشق العباب
كالحية السوداء تركت أثراً بعد انسيابها .

الأزهار والثمار

أحب العربي الجاهلي الغيث فجعله نعمة ورحمة يستقي ويشرب ويستقي راحلته ويقنات ، واكن العباسي زاد على هذا كله أنه يرى فوق النعمة ترفاً ونعياً ، فيرى المياه والأنهار والبحيرات والبرك والسفن ، ويجد الزهر والتّورّ في البساتين والرياض فينعم كذلك بمنظرها ومرآها ، ويأكل من الثمر ما لذ وطاب . وما أشرف القرن الرابع والخامس حتى انصرف الشعراء إلى الرياض والزهر والثمر ، فاستبدوا بالوصف وحلقوا فيه فأتوا بالعجب العجاب ، وخصوا كل لون من الأزهار والثمار بأوصاف مستقلة هدفوا إليها وسعوا في تصويرها ، حتى لقد قال بعض النقاد إن الطبيعة ظفرت في شعر الحمدانيين بنصر عظيم ونهضة طيبة . وقد تنبه المعاصرون في ذلك الزمان إلى هذا ، فجمعوا ألوان هذه الأوصاف وقاموا للموازنة بينها على أنها فن مستقل ، فكتب السرى الرفاء في ذلك وهو من رجال القرن الرابع ، عاش في العراق والشام ونظم في هذه الألوان وشارك فيها مشاركة شاعر و صاف ، لذلك عدنا إلى كتابه « المحب والمحجوب والمشموم والمشروب » ، ونظرنا في مخطوطته لنجمع أشتات هذه الصور ونعرض نماذج منها لعلنا ندلل للقارئ

على روعة ما وصل إليه الشعر في هذا العصر ، كما فعل المؤلفون بعده ، فجمعوا من فصوله وجعلوها في كتبهم ، كنهاية الأرب للنويري وغيره ؛ فقد نقلوا عنه بعض موضوعاته وفيها كل عجيب : نفع الأنوار وسقوط الطلّ عليها ، واهتزاز الأوراق والأغصان ، والشقائق ، والبنفسج ، والأقحوان ، والرجس ، والسوسن والياسمين ، والخيري ، والبهار ، والخلنار ، والسفرجل ، والزعفران . ولا سبيل إلى سردها كلها في كتاب موجز كهذا الذي نكتب فيه ، وفيها شعر جميل وثروة ضخمة . ولعل أحسن الشعراء في هذا الباب هو الصنوبري ، فقد دعاه مؤرخو الأدب بشاعر الرياض ، وسموا الفن الذي حلق فيه بالروضيات ، بل إن ديوانه بستان تتمايل أغصانه بالثمر ، وتهتز نباتاته بالنور والزهر ، رسم الفصول وما تنبت من زهر وثمر فلم تفته واحدة منها ، ولم يقصر شعره على فصل واحد ، وإكثه فضل الربيع :

إن كان في الصيف ريحان وفاكهة
والأرض مستوقد والجو تنور
وإن يكن في الخريف المحل مخترقاً
فالأرض محصورة والجو مأسور
وإن يكن في السماء الغيم متصلاً
فالأرض عريانة والجو مقرر
ما الدهر إلا الربيع المستنير إذا
جاء الربيع أتاك النور والنور
فالأرض ياقوتة والجو لؤلؤة
والنبت فيروزج والماء بلور
لا تعدم الأرض كأساً من سحائبه
فالنبت ضربان سكران ومخمور
فيه جنى الورد منضود موردة
به المجالس والمنثور منشور
هذا البنفسج هذا الياسمين وذو الن
سرين ذا سوسن بالحسن مشهور
فالصيف ذو فاكهة وريحان وفي الخريف تتصل الغيوم وتتعري الأرض
ويسود القر ، وأما الربيع ففيه النور والنور ، والأرض خضراء والجو صاف
والماء بلور والنبات سكران أو مخمور ، والورد منضود والمنثور منتشر .
ووصف كشاجم الشقائق حمراء مصقولة كأنها وجنات أربع قد جمعت ،

ولكل واحدة في صحنها خال . ورسم المهلبى البنفسج كأنها أوائل النار في أطراف
كبريت . وشبه الشعراء الورد بالحدود ، وزهر الأقحوان يتضحك فوق ساق
دقيقة كأنه سكران يثنى ؛ والنرجس والخيري والسوسن والنارنج والآ ذريون تلتقي
في صور جميلة كما تلتقي الحسان في عرس كل تحمل أجمل زينتها وأطرف
أصباغها . وقد قال أحد الشعراء في البنفسج :

وكان البنفسج الغض يحكى أثر اللطم في حدود الغيد
وقال أبو فراس يصف الجلنار :

وجلنار مشرق على أعلى شجرة
كان في رءوسه أحمره وأصفره
قراضة من ذهب في خرق معصفه

أما الثمار كالتفاح والسفرجل فقد تلاعب بهما الشعراء فشبوهما برسول القبل
حين تعض بالأسنان ، ورسموها بما في الوجه من صفرة أو حمرة لأنهم كانوا
يتهادون بهما . ووصفوا العنب والموز ، ويقول ابن الرومي في الموز :

يكاد من موقعه المحبوب يدفعه البلع إلى القلوب

الرياض

ونظر الشعراء إلى الطبيعة يرقص فيها الزهر ويلتحمع النور ويمايل الثمر ،
ويختال الشجر ، فوجدوا كأن الدنيا في عرس أو كأنها في عيد ، فأثنى ابن
الرومي على آلاء الرحمن لهذا المنظر الجميل ، ووجد أن الروض قد اكتسب
بأفواف الحبر فكان الطبيعة أنثى تبرجت للذكر بعد حياء وخفر . ونظر إلى
الرياض فرأى فيها مصابيح توقد وتاتمع ، والزهر يتضحك ويرسل أريجيه ،
وكان البساتين تختال كما تفعل الفتاة في خيالتها تشكر المولى على ما أنعم
وتثنى على السماء في أرج وعطر ، والنسيم يسرى كما تسرى الأرواح في الأجساد

فتحمل شكرها إلى بارئها ، والحمايم تنداعى كالبواكى أو القيان الشواذى أو كما تغرد الطير فى الأيك . ويلح الشاعر على معنى الضحك فى النور ويرسمه كما نرسم الأناسى فى عين اليقظى وجيد الناعسة ، والنبت قد اكتسى بالأصباغ فكأنه يلبس الطيالس أو يحكى الطاويس ، بل هو يجد حين المطر مائماً فى السماء يبيكى والأرض تحته كالعروس فرحة مستبشرة .

والبحترى حسب أن الربيع يتكلم من حسنه ، فهو يختال ضاحكاً مسروراً لما يرى من زهر ونور ، فالورد ينبه النورّ النعس ، والبرد يفتق الزهر فكأنه يبث حديثاً كان مكتوماً ، والشجر اكتسى بلباس كالوشى منمنم ، ورق النسيم حتى لكأنه أنفاس الأحبة ، فتغنت الأوتار وانتشى الندمان كأنهم البدور يستحشون الأنجم . والشاعر يصف البرق يلمع ، والمطر يمتد إلى الأرض كجبال فتضاحك الأودية وتنتثر اليواقيت وقد جلال النور ظهر الأرض ، وتقلبت الألوان على الطبيعة فغرد الطير وهبت الريح تختال كالعدارى .

وأبو تمام يشبه زهر الربى بالقمر ، ويحسب أن كل زاهرة تترقرق بالندى فكأنها عين تحدق فى الناس فيقول :

من كل زاهرة تترقرق بالندى	فكأنها عين إليك تحدر
تبدو ويحجبها الجميم كأنها	عذارى تبدو تارة وتخفر
حتى غدت وهداتها ونجاداتها	فتتين فى خلع الربيع تبختر
مصفرة محمرة فكأنها	عصب ^(١) تيمن فى الوغى وتمضّر
من فاقع غضّ النبات كأنه	درّ يشقى قبل ثم يزعفر

وهذه ألوان محببة مزج الشاعر بينها فجاءت لوحة مترعة بالفن صادقة الرسم كأنها صورة الدنيا تنطق بالجمال .

وأما رقص الأشجار وتثنى الأغصان فالبحترى يشبهها بالعدارى هبت

(١) العصب : برود مخططة يمانية ومضرية .

الريح بها فأرقصت أفنانها ، وتقاربت للتعانق كالأحبة تعطف وتصغى للأسرار
أو تستمع إلى الغزل . وابن المعتز يزيد على هذا أن الأغصان في رقص وشرب
وسماع . والسنوبري يفتن في رسم الشجر فيقول في السرو بحلب :

سروها الداني كما تدنو فتاة من فتاها

ثم يصفه كما نصف الغواني تتلاعب ويداعب بعضها بعضاً فيقول :

والسرو تحسبه العيون غوانيا قد شممت عن سوقها أثوابها

وكان لإحداهن من نفح الصبا خودٌ تلاعب موهناً أترابها

لو كنت أملك للرياض صيانة يوماً لما وطىء اللثام ترابها

فأعار الشجر صورة الآدميين وخصّ التشبيه بأحسن بني آدم صورة
وحسناً وهي المرأة ! ودعا إلى تكريم الشجر وجهه والحفاظ عليه كما تدعو
حكومات العالم اليوم إلى المحافظة عليه ورعايته .

الليل والأفلاك

وذهب الشعراء في وصف الليل مذاهب القدماء ، فقال بشار : ما ليل
لا يبرح كأنه موصول بليل آخر فما يتزحزح ، ورأى أن الكرى هو الذي أطال
ليله ، أو كأنه التغميض نبا عن عينيه كأن جفونهما قصار لا تتقارب . وابن
الرومي شبه الليل بالدهر لطوله قد تناهى فليس ثمّة مزيد كأن نجومه نجوم
الشب لا تزول ولكنها تزيد يوماً بعد يوم ، وأبو العلاء المعري شبه الليل بعروس
من الزنج .

وتطرقوا إلى النجوم والأفلاك كذلك ، فرأى ابن المعتز أن كل نجم غائر ،
وأن هلال السماء كطوق عروس فوق غلائل سود بل إنه كمنجل قد صيغ من
فضة يحصد النرجس من زهر الدجى ، وأن الثريا كالعنقود في الغرب ، بل إنها
في أواخر الليل كتفتح الزهر أو كالجام مفضض ، وأنها قدم تبتت من ثياب
حداد . والبهترى يرى سهيلاً كشخص ظمآن جانح يكرع . ووصف ابن

الرومي الشمس كالورس المزعزع حين تقضى نحبها . وابن المعتز يصف الصبح قائلاً :

والصبح يتلو المشتري فكأنه عريان يمشى في الدجى بسراج
وفي كثير من هذه الصور إبداع جديد وتشبيهات حية تستعير صورها من
الناس والمخلوقات أو الأشياء في الطبيعة .

الأطلال

وسار الشعراء العباسيون كذلك في وصف الأطلال مسير القدماء ، فوقف
بشار بها وبكى أبو تمام ديار الأحبة ، ودعبل وقف بمنزل الرسول ، والبحترى
رثى المنازل كذلك وبكى على الدمن الموائل كالنجوم فإذا عفت فهو يتساءل
بأى نجم يهتدى ؟ ! وهذه الصور لا جديد فيها ولكننا أوردناها لنتنبه إلى
تعلق القوم بأوصاف القدماء في كثير من أغراض الشعر .

القصور والأبنية

رأينا أن الشعراء العباسيين قلدوا في وصف الأطلال ووقفوا عند معاني
الأقدمين ، ولكنهم على ذلك وصفوا القصور والأبنية الجديدة ، فرسم البحترى
قصرأ بناه المتوكل على الله بن المعتصم ، وشبه علوه بجبل رضوى أو شواهق
خيبر ، وقال إن الناس ينظرون إليه كما ينظرون إلى نجم المشتري . وقد عانقت
شرفات القصر قطع السحاب ، فكأنه يصف ناطحات السحاب لعصرنا الحاضر .
ووصف البحترى كذلك قصرأ بناه المعتز بالله فصور الحمام وقد ذعر من
منظره حين ترزم فوقه ، وصور حيطان الزجاج لحجاً تموج على السواحل ، وكان
تفويف الرخام حبك الغمام رصفت في ألوان مختلفة ، وكان سقوفه المذهبة
تير السبل في الظلام . وأما بساتين القصر فكأنها كسيت بالبرود الموشاة ، والأشجار

فيها مثل العذارى الغيد تمايلن عشية حاليات وعاطلات .

وتناول في وصفه قصوراً أخرى نقصر عن تعدادها وتلخيص موضوعاتها ، فكأنه مهندس معاصر يرسم الأبنية ويصف صورها وأوصافها في شعر غنائى يتخيل فيه الغمام والبرود والعذارى تختلط في لوحة واحدة ، وتحس في وصفه لقصور المتوكلية كأنه يرسم المدن الحديثة وقد لمعت قصورها كالكواكب تضيء للسارى السبيل ، وهذا ما يشاهده المسافرون اليوم حين يركبون متن الجو ويحلقون فوق العواصم الكبرى خلال الليل . ولن ننسى وصفه إيوان كسرى فقد أبدع فيه وأجاد :

وأما الصنوبرى فقد صور مدينة حلب وحولها القرى كأنها بدر الدجى والقرى أنجم زهر ، ثم رسم الجامع والمئذنة والفوارة والقبة والسارية ، والشوارع والدور ، وفعل مثل ذلك حين زار دمشق ، فوصف شامخ البناء وخاصة الجامع الأموى .

الأطعمة والمآكل

وليس عجباً أن يعرض الشعراء لوصف المآكل والأطعمة بعد أن عرضوا للسماء والماء والزهر والثمر ، والنبت والشجر ، وصيد البر والبحر ، فكأنهم يريدون أن يصفوا كل ما وقع لهم .

وصف ابن الرومي اللوزينج ، وهى حلواء تشبه القطائف وتؤدم بدهن

اللوز ، فقال :

مستكثف الخبز ولكنه	أرق جلدأ من نسيم الصبا
كأنما قدت جلابيبه	من أعين القطر إذا قبا
يخال من رقة خرشائه	شارك في الأجنحة الجندبا (١)

(١) الخرشاء : قشرة البيضه ، وكل شيء أجوف فيه انتفاخ - الجندب : الجراد .

لو أنه صوّر من خبزه ثغراً لكان الواضح الأشنبا (١)
 من كل بيضاء يجب الفتى أن يجعل الكف له مركبا
 ذيق له اللوز فلا مرة مرّت على الذائق إلا أبي
 وانتقد السكر نقاده وشاوروا في نقده المذهبا

فهو كثير الخبز ولكنه رقيق في جلده أرق من النسيم وقشره ناعم كأنه
 أجنحة الجرادة ، مزج باللوز والسكر وأصبح يحبه كل فتى ويتمناه كل إنسان .
 فابن الرومي وصفه في دقائقه وتفصيلاته كما وصف الخبز في مراحلها بيد الخباز
 يدحو الرقاقة ، فتتحول من كرة إلى قوراء كالقمر ويرسم صورة الحجر يرمى
 في الماء ، وكما وصف الزلابية في رقة القشر والتجويف كالقصب ، وجعل الزيت
 المغلي كالكيماويات ، يحيل العجين من لحين إلى شبايك من الذهب .

وكشاجم رسم القطائف كذلك ، ولا عجب فقد كان طباخاً لسيف الدولة
 قال :

كأنه إذا تبدى من كذب كواثر النحل بياضا وثقب
 قد معّجّ دهن اللوز مما قد شرب وابتل مما عام فيه ورسب
 ثم وصف البطيخ في لغة سهلة محببة تعودناها في رسمه للمأكولات خلال

قصائده :

يا جاني البطيخ من غرسه جنيت منه ثمر الخلد
 لم يأتنا حتى أتتنا له روايح أغنت عن الند
 كأنما تكشف عنها المدى عن زعفران زيف بالشهد
 بظاهر أحشن من قنفذ وباطن ألين من زبد
 كأنما في جوفه قهوة ينقع فيها عنبر هندي
 فهو ثمرة الخلد ورائحته تغني عن الند ، ولونه كالزعفران مزج بالشهد ،

(١) الشنب : ماء ورقة وبرد ، وعذوبة في الأسنان .

ظاهره كالقنفذ في خشونته وباطنه كالزبد في لينه .

وقد صور الشعراء كذلك الدجاج المطبوخ والفراخ ، ووصف ابن العميد طعامه وصفاً مسهباً في قصيدة تسيل بالكوامخ والأطايب من المآكل ، ووصف السرى الرفاء الحمل المشوى وصفاً جميلاً ، قد شق حشاه ، وصور الصابي طباحه حين يطبخ له العجل والحروف .

مرافق البيت

ووصفوا ما كان في البيوت من مرآة ونخاتم وسبحة وثوب ودواة وأقلام ودفاتر ، ومن شمع ونحل ومروحة ودنانير وفرو ، وجعلوا لها مكاناً في دواوينهم ، ونثرها المؤلفون في كتب الأدب ، كما في كتاب التشبيهات لابن أبي عون ، والتحف والهدايا للخالدين ، ونهاية الأرب للنويري ، وقد جمع هؤلاء الأدباء كل ما يخطر في البال من هذه الأوصاف مما تهاداه الناس أو استحسونه ، ولا سبيل إلى حصر هذه الألوان فهي كل حياتهم الاجتماعية وحضارتهم وتمذنبهم ، ولسنا نؤلف في هذا هنا ، ولكننا سنكتفي بعرض نماذج من وصفهم لها .

أهدى المريمي إلى أبي الحيش خمارويه بن أحمد بن طولون مرآة ووصفها

مع الهدية قال

مكشفة ستر العمى عن ذوى العمى ومنطقة في وصفها ألسن الخرس
بحيرة نور موجهها متدافع وليس لها غير التائق من حس
لها نور إفرد وروثق جوهر يكدره أدنى التنفس واللمس
فهي تكشف الصور وتُنطق الأوصاف ، تموج بالنور وتتألق بالحس كنور
السيف ووشيه وروثق الجوهر ، تتكدر باللمس أو بالتنفس . وشبيه هذه الصورة
ما قاله أبو بكر الخالدي في المرآة حين تنفس أمامها الحسناء فتشبه الغيم
الأبيض :

وتنقبت بخفيف غيم أبيض هي فيه بين تخفر وتبرج
 كتتنفس الحسنة في المرأة إذ كملت محاسنها ولم تتزوج
 ووصف ابن الرومي الدواة سوداء محلاة بالذهب حين أهداها إلى أحد
 الرؤساء :

قد بعثنا إليك أم المنايا والعطايا زنجية الأحساب
 قد تحلت بصفرة وكذا الزنج تحلى شكلا بصفر الثياب
 في حشاها بغير حرب حراب هن أمضى من مرهفات الحراب
 فهى زنجية وحليها الأصفر كثياب الزنوج ، والأقلام فيها كالحراب بل
 أمضى منها .

ووصف نطاحة الكاتب دفتره فشبهه بالروض أو بالبرد في وشيه ، فيه
 السطور منظومة مشكولة منقوطة كأنه بستان خط غير أن الثمار اتخذت
 رسم الحروف فيه . وابن المعز صور القلم كأنه يجرى بما شاء ، يلثم القرطاس
 كما يقبل البساط الشكور ، وهو يجلب العطايا ، أو المنايا ، صغير لكنه كبير
 الأفعال .

وأبو بكر الخالدي وصف مروحة فجعلها من النخل والخيزران لبست
 سواداً كحداد العشاق ، ترد القيط وتخفى السر وتصلح لضرب الدلال ويومى
 بها في عروض الكلام . ووصف الصنوبرى الشمعة فرأى أنها تحول الليل نهاراً
 وأنها شجر يحمل ناراً ، وهى عذراء تفتنض من أعلاها . والحسين بن الضحاك
 رسمها صفراء كذلك ولكنها مثل الأفاعى إذا أهدت ، وشعلتها زرقاء كأحدائق
 الروم :

ولم أر من قبلها أنفساً تذيب الجسوم بأحراقها
 وإن مرضت لم يكن برؤها بشيء سوى ضرب أعناقها
 وابن الرومي جعلها هيفاء من ندماء الملوك ، صفراء كالعاشق المدنف ،

فهي تكيد الظلام كما كادها ، فتنفى وتفنيه .

والشاعر الصنوبرى وصف نعلا يستهدىها فرسم أجزاءها وألوانها وصورها كالطائر ترفرف ، فكأن خرزها بالخيط يشبه عيون النمل ، وكأن شكلها يشبه أذن بقرة الوحش فهي حيناً كالخية وحيناً كالعقرب إذ تقبل أو تدبر .

وتعرض أبو تمام للشباب فوصف كسوة الصيف كقشر البيض أو السراب الرقراق فى القفر ، يرجف بالريح كأنه كبد الحب أو قلب الخائف ، يلصق بالمتن والأضلاع ويطرده المجير . وكذلك وصفها التنوخى فجعلها تخفق كقلب الجبان ، أو السراب والماء والسناء والبهاء حين تلتمع جميعاً .

* * *

وهكذا رأينا هؤلاء الشعراء خلال خمسة قرون يقف بعضهم بالأطلال يبكى الديار والمنازل ، وبعضهم يقف بالقصور فيصف الرياح والوحش والجآذر كأنه فى فلاة ، ومنهم من يركب المطى إلى الممدوح ، ويصطنع كثير منهم ألفاظاً بدوية وصوراً جاهلية . ولكنهم إلى جانب ذلك جددوا فى كثير من صور الوصف فى الطبيعة فرسموا ما لم يرسم الأقدمون وصوروا ما لم يقع فى الجاهلية وصدر الإسلام ، فكانت ثورة سايرت الزمن فى كثير من نواحي حياتهم الاجتماعية ، فخلقوا صوراً تمثل عيشتهم وحضارتهم ، والأدوات التى كانت بين أيديهم والمشاهدات التى تراقصت أمام أعينهم .

الفصل الثامن

العصر العباسي

وصف الخمر والسقاة

انطلق كثير من الشعراء في هذا العصر إلى الشرب في الأديرة والحانات والقصور ، في مجالس عامة أو خاصة ، ووصفوا الخمر والسقاة والكؤوس ، وأصوات المغنين والمغنيات ، وهم يمتعون النظر بالراقصات من قينات أو جوار ، حتى لم يخل ديوان شاعر في هذه الأزمنة من وصفها سواء شربها أم لم يشربها ، فقد أصبح وصفها فذاً من الفنون لا يجوز للشاعر إغفاله أو القعود عن التسابق فيه . وكأن القول في الخمر لم يكن يضير صاحبه أو يكلفه عنتاً ، فقد نقلت كتب الأدب أن الوزراء والأمراء وبعض الخلفاء أقاموا مجالس لشربها أو وصف ما يدور فيها ، ولذلك كثر الشعر في الخمر والشراب وتقلبت عليها الأسماء وتنوعت ، فهي قهوة ومدامة وسيئة ومشعشة وصرف وعقار ومصفق وكميت وصهباء وسلافة وعانية و .. إلى ما لا نستطيع حصره . وكثرت كذلك آلات الشرب وتنوعت أسماؤها حتى خصت بها كتب في شربها وفي النديم كما فعل كشاجم وابن المعتز والسرى الرفاء ؛ والشابشي في كتابه الديارات رسم الشاربين والعايشين في هذه الأماكن .

ولعلنا نستنتج من شعرهم أنهم يحبونها عتيقة أزلية ، فيقول أبو نواس : تغافى جسمها والروح باق ، ويقول ابن المعتز إن الناس أسكنوها الدنان من عهد عاد

وأن الدهر أكل ما تجسم منها وأبقى لبانها المكنون ، ويصرون فضّ ختامها
 كأنه الذهب أو توقد المريخ في الظلماء ، قال الصنوبري في ذلك :
 وأمطر الكأس ماء من أبارقه فأنبت الدر في أرض من الذهب
 وسبح القومُ لما أن رأوا عجباً نوراً من الماء في نار من الذهب
 ووصف والبة بن الحباب إبريقها فقال :

إبريقنا مصلٌ يضحك في صلته
 يكب ثم يُقعى كالظبي في فلاته
 يمجّ كل شيء يمرّ في لهاته

فلم يتورع عن إدخال الصلاة وألفاظها في وصف إبريقه ، ورسمه كالظبي
 يكب ويقعى. ووصف الشاعر البسامي إبريقه ضاحكاً باكياً كإنسان حزين فرح
 ملثم بالقز أو متشع به ، وصوّر الشرب حولها فقال :

ترى أباريقهم مفدّمة يعلها الفتيّة المغاوير
 كالطير حامت على شرائعها فابتل من وردها المناقير
 وهي صورة حلوة تجعل الشاربين من الخمر كالطير تحوم حول الورد فتبل
 مناقيرها . وتعرض الشعراء للون الخمر فجعلها ابن المعتز كالذهب :

وخمارة من بنات المحوس ترى الزرق في بيتها سائلا
 وزناً لها ذهباً جامداً فكالت لنا ذهباً سائلا

والخمارة في العصر العباسي تكون رومية ومجوسية وفارسية ، وتكلف مالا
 طائلاً كما رأينا في العصر الجاهلي سواء بسواء . وحيناً ترى لون الخمر أصفر
 زعفرانياً إذا تأملتها حسبتها في ثوب كافور ، وحسبت الطل بينها كدمع تحدر
 من أجفان مهجور كما قال ابن المعتز .

وأبونواس يراها صفراء كذلك لا تنزل الأحزان ساحتها ، لو مست حجراً
 لأصابه سرور فكيف إذا شربها الإنسان؟ ! وأما رائحتها فهي كالعنبر أو

المسحوق الهندي من المسك قال فيها البحرى :

ولها نسيم كالرياض تنفست في أوجه الأرواح والأنداء
وفواقع مثل الدموع ترددت في صحن خد الكاعب الحسناء
ومسلم بن الوليد يصفها صاحبة كعين الديك لا تقبل القذى ، ويمزجها
ابن المعتز كالقدماء بماء السحاب فيرى في وجهها نسيج الدروع :

قهوة زوجت بماء سحاب فكسا وجهها نقاب حباب
مثل نسج الدروع أو مثل ميا ت تدانت به سطور الكتاب
وتراها في كأسها مثل شمس طلعت في ملاءة من سراب
فإذا صادفت فؤاداً خلياً لم تدعه فرداً بلا أحباب

لأنها حمر ابن المعتز قد زوجت بماء السحاب فاكتست من الحجاب بنقاب
وأصبحت مثل ميات في كتاب ، فهي شمس في الكأس طلعت في ملاءة
من سراب. والشاعر يجد الماء كالفضة لها حلق بيض تحل وتعقد .

وشبهها البحرى في رقها بلفظ الصب يشكو حرارة الوجد . وكشأجم يراها
تحول الحليم سفيهاً .

لست أدري لركة وصفاء هي في كأسها أم الكأس فيها ؟ !
فهو يصف الكأس في صفاء ورقة يحبها الشعراء كالصنوبرى وابن المعتز
ويقول فيها البحرى :

لبست زرقة الزجاج فجاءت ذهباً يستنير في لازورد
وكلهم في تشبهها بالشمس أو بالنور والذهب أو اللازورد ، يستعيرون
من الطبيعة والأفلاك ويجعلون ألوانها صافية مشرقة . وأبو نواس يخترع لها أوصافاً
عجيبة لشدة صحبته لها وعكوفه عليها ، فيجعلها كصباح المساء .

وابن الرومي يصف الشارب في لطف ورقة وبلاغة فيقول :
أبصرته والكأس بين فم منه وبين أنامل خمس

فكأنه والكأس في فمه قمر يقبل عارض الشمس
وهذه الصورة أعجبت القدماء ووقفت في صفحات كتبهم تعبر عن
البلاغة المثلى والفصاحة العليا . وقد كلف بها الشعراء لأنها تزيل الهم وتشفي
الداء ، وابن المعتز شرب بالكبير وبالصغير من كثورها لا يحفل بأحداث
الدهور ويرى أن خيل الملاهي يجب أن تركض به وأن يطير بأجنحة السرور ،
فإذا ما استقرت في قلب فتى نسي لوعة الكدر فيقول :

خليلى اتركنا قول النصيح وقوما وامزجا راحاً بروح
فقد نشر الصباح رداء نور وهبت بالندى أنفاس ريح
وحان ركوع لإبريق لكأس ونادى الديك : حى على الصبوح
وحنّ الناي من طرب وطيب إلى ناي يكلمه فصيح
هل الدنيا سوى هذا وهذا وساق لا يفارقنا مليح .
فهو حين يجتمع له الخمر يرى أن يجتمع الناي المطرب والساقى المليح !
فالدنيا في خير وسرور ، وليست مليحة إلا بهذا الشرب وهذا الطرب .
ووصف الشعراء كذلك ما تبعث الحمرة في العين والحد من حمرة قانية ،
وعينوا أوقات شربها حين تتسابق السحب والأمطار والغيوم في سماء الطبيعة ،
وتتعقد ألوان قوس قزح في الأفق ، فالشمس مريضة وكأن الحجب مدت عليها
ثياباً ، والطيور مشغولة تتطارح صنوف الغناء . وكثير منهم يستحب أن يشربها
والتلج يتساقط فتشيب الأرض وينتشر العبير ، كما فعل أبو فراس الحمداني
وكشاجم .

وقد قال الصنوبري يصف الطبيعة وهو يشرب :

الجو بين مضمخ ومضرج والروض بين مزخرف ومديج
والتلج يهطل كالنثار فقم بنا نلهو بربة كرمة لم تمزج
وأحب شربها آخرون بقرب النار فرأى في ذلك اجتماع نار الراح ونار الحد ونار

الحشا في الصب. والصنوبرى يصيح بغلامه أن يجلب الكانون وأن يوقد النار ، وكذلك فعل كشاجم . وشربها بعضهم على الرياحين في شباب النهار واستمع إلى غناء الطير والنسيم يهب والشمس كدينار مجلو . وشربها غيره في الليل والليلك لم يتبته كأنه سكران يغطى في نومه ؛ والليل كشعر الحسنة والخمر كمخديها والشارب من ذلك في ليلين : شعر الحسنة والدجى ، وفي صبحين : كأسها وجهها .

وهكذا نرى أن الشعراء اختلفوا في وقت شربها ، ولم يختلفوا في أثرها وفي فائدتها ، واتفقوا على أن يكون خلال الشرب عيد الطبيعة ، يمتزج الغناء بالرقص . والجو والشمس والسحاب والمطر كأنها تشترك في جلاء العيد وفي زينة المجلس !

السقاة ومجالس الشرب

وأما الساقى فيجب أن يكون عند أبي نواس مستعيراً خلق جارية ، فالدر مضحكه والقوس حاجبه والسهم عيناه والأشفار أرواح ، وفي رأى غيره يكون أحور قد تخضبت يدها من الكأس وماس بأعطافه كالخيزران ، وعند ذاك يسقى بعينه ويديه . وابن المعتز يشرب من كف شادن يشكو لحظه السقام ، فكأن السلاف من ماء خده وكان العنقود يقطف من شعره الجعد ؛ والبحترى يعتصر الخمر كذلك من خد ساقيه الشادن . وابن المعتز يصف السقاة وصفاً طريفاً جميلاً حين يقول :

وكان السقاة بين الندامى ألفات من السطور قيام

وأما الصنوبرى فيريد ساقيه لطيف المنطق ثقيل المؤزر مرتج الكفل غنج العين ، من نسل الدهاقين في الفرس ، فله عز السلطين وللشاعر حين ذاك ذل المساكين ! فهو يتحكم في الشاعر كأنه يسحره أو يرقيه .

فالساقى عندهم محبوب معشوق له جمال وفتنة وسحر يتغزلون به ويجدون

عنده لذتهم وهناعتهم . وفي القرن الثالث استحب كثير من الشعراء أن يكون ساقيه ملتصيحاً بعقرب صدغه . ولن نعرض لأوصاف الغلمان والسقاة فهى كثيرة تجدها فى كتب الأدب ، ذكرنا منها فى كتاب الغزل ما سمحت به الصفحات هناك ، وصورنا ما كان الغزلون يستحبون من هؤلاء الغلمان .

ويسعى الشعراء إلى أن يكون جلاسهم وندمانهم فى طيب الخلق والخلق ولا تطيب الراح عندهم إلا بطيب العصاىة كلها لئلا يحفظوا على السكران زلته ، وهم يحبون أن يجتمع الشرب والطرب فتعمل المزاىر والنايات والعيدان وتجول القينات وتصول ، كما قال أحدهم فى وصف ذلك :

ورنت على النايات أوتار قينه تشوق فتيناً إلى فتيات !
ويجب أن تكون القيمة مشرقة الوجه معشوقة الألباط والغنج ، تعزف على الآلات وتطرب الأسماع ، فتدغدغ العود وتعرك أذنه . وقد وصف الشعراء فى مجالس الشراب المغنين والمغنيات ، فأبدع ابن الروى فى وصف ذلك وخاصة فيما كان لوصف وحيد المغنية ، إذ رسم صوتها وهدهوها فقال :

فتراه يموت طوراً ويحيا مستلد بسيطه والنشيد
فيه وشى وفيه حلى من النغ م مصوغ يخنال فيه القصيد
واستطرد الشعراء من ذلك إلى وصف آلات الطرب كالناى والعود ، كما فعل الوأواء اللمشقى وكشاجم والصنوبرى والسرى الرفاء .

وإذا كانت الخمر معتقة والأبريق جميلاً ، والوقت مواتياً والساق فاتناً ، وسار الطرب وتحركت الموسيقى فأن دبيب الخمر فى العظام يسرى كأنه النعاس قد أخذ بالمفاصل ، فهو يشرب الخمر ولكنها تشرب عقله خبلاً ، ويسلم روحه للراح ويميل رأسه على الكأس ويتلعم اللسان وتقول الجوارى إنه رجل من الأحرار صرعته الشفاه بالكأس والطاس . وييرى السكران فى الناس سقاة وفى الأشياء كئوساً كما قال أبو نواس ، ومع ذلك يستزيدون منها ، ويستشفون

بها ، ويجدون بها الدواء لكل داء ؛ ويقول الحسين بن الضحاك :
أعود إليها وموتى بها كما تجرح الحرب أبطالها
وهكذا رأينا أن العباسيين شربوا كما شرب الجاهليون وكما شرب من قبلهم
من أمم خلال القرون ، حتى قيل إن إبليس عصر الخمر لقابيل وأولاده !
ونقل كذلك أن آدم أول من غرس الكرم ، ونسجت كتب الأدب حول ذلك
أسطورة تقول إن الخمر ولدت معها الخيلاء والزهو والمرح والرقص والعريضة ثم
الانعقاد ، وذلك منذ الأبد حتى اليوم ، والشعراء رافقوا الأسطورة فكانوا
ضحايا للهب وشهود المعركة ؛ كما كان اليونان قبلهم والفرس ، ولكنهم لم
يصنعوا للخمر آلهة كما فعل أولئك ، وإنما اكتفوا بصحبتها وحبها على الزمان ،
فرسموها كما رسموا الحبيب والمعشوق ، وخلفوا فيها صوراً خالدة تفوق ما كان للشعر
الغربي في رسمها ووصفها .

الفصل التاسع

العصر العباسي

وصف المعارك والحروب

أبو تمام - البحتري - المتنبى - أبو فراس - الشريف الرضي

قامت الحروب في عهد بني أمية ووصفها الشعراء فكانوا إلى الفخر بالنصر أقرب من وصف المعركة نفسها ، اوتناولوا إلى ذلك بالهجاء خصومهم . وثار حروب الخوارج فرسمها الشعراء كذلك وعرضوا للفروسية والبسالة والفتك والتفاني فجعلوا الثورة دينية وجعلوا المثل العليا رائدها . ونهض الشيعة في وصف نضالهم بالدمع والحزن وكان ذلك دينياً أيضاً . وابن قيس الرقيات وصف قتال الزبيريين وشارك كعب الأشقرى في الفتوح وحمل قسماً من القتال فشهد حروب الأزارقة وصورها فأبدع فيها ، ولكن هذا الشعر كله كان شبيهاً بحماسة الجاهلية ممزوجاً بفكرة الدين والعقيدة والدفاع عن المبدأ .

ولما انهزم بنو أمية أمام جيوش الدولة العباسية هزّت الانتصارات الجديدة شعراء العصر فوصفوا النصر والهزيمة وأكثروا من القول فيها ، وأكثر الذين فخرُوا بذلك هو ابن المعتز فقد أشاد بالحرب ورسمها وتهكم بالعلوين .

وقامت كذلك حروب داخلية في العراق بين قواد الترك ، وخرج كثير من الأمراء على الحكم فنشبت الحروب بين بغداد وبينهم ، واستمرت ثورات القرامطة والزنج ، وشبّت نيران العداوة بين الشيعة والسنة . ونشأ حول ذلك كله

شعر كثير رسم الخيل والسلاح وخراب المدن ؛ حتى إن ديوان ابن نباتة السعدي غصّ بكثير من صور الحروب .

ووقعت بين العرب والروم حروب عرض لها أبو تمام والمتنبي وأبو فراس الحمداني وكثير من شعراء سيف الدولة ، فوصفوا ما قام عند الثغور أو ما وراء الثغور والتخوم حتى خرشنة أو على مقربة من القسطنطينية . وكان من هذا كله صفحات وافرة في وصف الحرب ، لو جمعت لكانت ملحمة كبيرة تفوق ما كان للأمم القديمة في وصف حروبها كالليونان والفرس والهند .

وقد وصف بشار بن برد معركة أثار غبارها وسيوفها حتى خيل لإليه أنها نجوم تتساقط في الليل . وأبو تمام على رأس الشعراء الذين وصفوا حروب الروم والعرب ، فاشترك فيها بعاطفته وتشفى من العدو وفرح لنكبته ، ورسم دياره وقد أصبحت طعمة للنيران يتراقص اللهب في أرجائها ، فيغنى عن نور الشمس في سمائها ، ووصف الفرسان قتلى وجرحى والنساء سبايا للجيش المظفر :

لم تشرق الشمس منهم يوم ذاك على
باكٍ بأهل ولم تغرب على عزبٍ
والبحتري شارك في ذلك فوصف الدروع في الحرب ولكنه لم يخرج على
أوصاف الجاهليين ؛ ورسم الأسنة والرماح تسيل في البيداء مسيل السراب
أو كأنها خيال كواكب في الماء ، وأبدع في تصوير المعركة كما رآها منحوتة
في إيوان كسرى ، فأرانا الفارس يشيح فيهوى برمحه ، أو يليح خصمه بترسه ،
وعرض المنايا مائل في الحرب تكشر عن أنيابها لاقتناص الفوارس ، وأنو شروان
يسوق الكتائب تحت اللواء .

والمتنبي وصف معارك العرب والروم فرسم العدو يسبح في نجيع من الدم ،
وكان السحاب تمطر عليه الحديد ، والمنازل تضطرم فيها النيران ، والقنا تفرع
القنا ، وموج المنايا حول الفرسان متلاطم ، ثم يصور القتلى من الروم مخاطباً
سيف الدولة في معركة الأحيديب :

نثرتهم فوق «الأحيدب» كلة كما نثرت فوق العروس الدراهم^(١)
 تدوس بك الخيل الوكور على الذرى وقد كثرت حول الوكور المطاعم^(٢)
 تظن فراخ الفتح أنك زرتها بأمتها وهي العتاق الصلادم^(٣)
 إذا زلقت مشيتها ببطونها كما تمشى في الصعيد الأرقام^(٤)

وقد انثر القتلى في كل زاوية كما تنثر الدراهم حول العروس ، وتوزعت
 جثثهم في كل مكان فتجمعت النسور حولها تأكل وتنعم ، والخيول تبلغ
 بالعرب أعلى الذرى كأنها الحيات تزحف ببطونها فوق الصخور . ورسم الدرود
 تكسو الفارس والخيول ، فقال إنهم يجرون الحديد فكأن جيادهم لا تظهر
 قوائمها في المعركة لكثرة الحديد ، ومع ذلك قتلوا وهلكوا . وأبرع صورة في
 بطولة القائد حين وقف يستعرض الأعداء جرحى منهزمين ، ووجهه ضاحك
 باسم بالنصر ، وهو أقرب ما يكون من مواقف الخطر كأنه في جفن الموت ،
 والردى نائم غافل عنه . وهذه الصورة تقف للشعر العالمي وتصلح للقواد جميعاً
 من عرب وغربيين حين ينتصرون كسيف الدولة .

وأبو فراس الحمداني وصف هذه الحروب ضد الروم ، وصور انكسار
 العدو وهرب الأبطال والملوك والقواد ووقوع نساء الروم سبايا في أيدي العرب ،
 وصور المعاقل تخر سجداً أمام العرب وشبه الأسرى والقيود تضحج في أيديهم
 وأرجلهم بغناء الغواني من غير مزاهر ، ووصف النصر فقال :
 وأوطأ حصني « ورتيس » خيوله وقبلهما لم يقرع النجم حافر
 فجعل حوافر الخيل تقرع النجوم حين بلغت الذرى في الجبال لتصل

(١) الأحيدب : جبل الحدث .

(٢) الوكور : ج وكر الطائر وهو موضع مبيته .

(٣) الفتح : ج فتحاء من العقبان وهي الينة الجناح - العتاق : كرام الخيل - الصلادم :

الشداد .

(٤) الصعيد : وجه الأرض - الأرقام ج أرقم وهو الحية فيها سواد وبياض .

إلى حصنٍ ورتنيس عند الروم ؛ وهذه صورة أخرى تقف لصورة المتنبي في زحف العرب إلى الأعلى والذرى بنحويهم . وأما الصور التي رسمها الشاعران لنصر سيف الدولة في غزواته ضد القبائل فكثيرة لا تحصى .

والشريف الرضى أكثر من وصف الحروب والخيل والدروع السابغة ، وخصّ شعره بالماضى التاريخي كما فعل الصنوبري وكشاجم ، فرسم حروب العلويين وامتألت نفسه بالحزن وخاصة في مقتل الحسين ، وصور الغبار والرماح والانتقام والتشقى .

ولعلنا لم نختار للمعارك شعراء كثيرين لأننا رأينا أن هؤلاء آثروا المجالس الناعمة والزهر والروض والماء والغناء والشراب ، وابتعدوا عن غبار المعركة وضجيج السلاح وقافى الدماء ، أو لأن الشعراء عاشوا أكثر الوقت في معزل عن السياسة والقيادة في الحرب والسلام .

الفصل العاشر

الوصف في الأندلس

ابن شهيد - ابن هاني - ابن زيدون - ابن حمديس - ابن خفاجة

انتقل العرب إلى الأندلس فوجدوا في القطر الحديد طبيعة مشرقة جميلة ، شبه القطر الذي قدموا منه في اعتدال الهواء وطيب الإقليم ، فقد قال القدماء ن الأندلس كالشام في هوائها واليمن في اعتدالها ، فعاشوا فيه كما عاشوا في داهم الأولى ؛ وكان يذكروهم بأوطانهم فيتملكهم الشوق والحنين ، ولذلك نثرت الشكوى أول الأمر عند شعرائهم ، فوصفوا الفراق والحوى ، وظلوا كذلك حتى كان القرن الخامس الهجري فضعف هذا الشعور بعض الشيء ، وأصبح شعراء يتكلمون باسم البيئمة والحوى ، فنظروا نظرة جديدة مختلفة إلى طبيعة البلاد أندلسية ؛ ولذلك كانوا فئتين فئمة تعيش مع المشرقيين في المعاني والألفاظ ، فئمة تشق طريقها إلى معان طريفة فيها كثير من التجديد وسنعرض هنا أهم ملامها .

وقد عاشت الفئة الأولى مع المشرقيين ، فجعلت في شعرها غريب اللفظ ديم الصور وجمعت من أشعار الجاهليين كامرئ القيس وزهير وعنترة معانيها وصافها ؛ وأحسن من يمثل هذه الفئة هو ابن شهيد ، فقد وصف البادية لأطلال والخمر والنجوم والليل ، ثم رسم الورد كالحلود حين تخجل والشقيق كوصفحاته من لطم اللاتم ، فاتخذ صوراً من العباسيين فيها البرق يضحك ثريا تتمايل أيديها بنحواتم مذهبة ، والشمس تنظربعين رمداً ليس فيها قذى .

ولعله أتقن فنون البلاغة فسار في شعابها ومسالكها كما قال فيه الفتح بن خاقان ،
وبذلك أعجب المشرقيين إذ قلّدهم وجاراهم .

وابن هاني وجد كذلك مثله العليا عند الجاهليين والأمويين وبعض المحدثين
كأبي تمام وأبي نواس والمتنبي ، ولذلك قرنوه بمتنبي المشرق ، وكثير من شعره
يقع في البادية والصحراء ، ويصورّ الظعن والأطلال والآل ، وبعضه يلتمّ بالبرق
وغناء الحمام والمدامة ، على أساليب المشرقيين ، فيسقى السلافة معتقة كلون
الجلنار ، ويركض نجم الليل كأنّ الليل يطلبه بثأر ، ويرسم الورد والزرجس
في صفرة وحمرة كما يرسمها العباسيون ، وتجدد عنده رسوماً لسهيا وبنات نعش .

هذه هي الصورة التي عاشت قبل القرن الخامس الهجريّ ، فلما كان
هذا القرن اكتملت الحضارة في الأندلس وانقطعت صلة الشعب بالبداوة
وبيئتها ، فعاشوا في القصور والحدائق والبساتين قرب الأنهار والبرك والأحواض
يتراقص الزهر والنور لأعينهم وتداعب الموسيقى آذانهم ، فكأنهم في قطر غربيّ
بعيد كل البعد عن المشرق في طريقة العيش وفي أسلوب النظر إلى الطبيعة .

وقد كانت تهبّ عليهم نسائم العصر الحمداني وما كان لشعرائه من
تجديد ، فقاموا لوصف بلادهم ومدنهم فتعصبوا لها وغدا كلّ من الشعراء
يتغنى ببلده أو واديه ، فابن زيدون راح يشيد بقرطبة ، وابن سفر المريني
بأشبيلية ، وترنم غيرهما ببلنسية ، حتى كان في وصف المدن والرابع كتاب
ضحك يغصّ بالشعر ، وكتاب نفح الطيب للمقرئ خير شاهد على هذا .

ونستطيع أن نقرأ هذا الشعر الذي يمثل وصف الأنهار والبساتين والغدران
والمدن ، وأن نرجع إلى هذه القصائد التي وصفوا بها البحر ، فقد
فتن الأندلسيون به وهاموا بحبّه وركبوه ، وخلصوا فيه شعراً كثيراً يرسم الأساطيل
والسفن ، فاخترعوا معاني كثيرة في هذه الأوصاف ، واكنك تقع بينها على
بعض معاني العباسيين مما لم يكن منه بد .

وابن زيدون وصف الطبيعة كذلك فأعارها حبه لولادة وحسه في القرب منها أو الشوق إليها ، فخاطب الريح والسحب والزهر والمواطن والمرايع ، ورجاها أن تنقل إلى حسنائه آية حبه ورسالة هواه ، وهو في هذه الأوصاف شبيه بالرومانتيكيين الذين يرون في الطبيعة أصدقاء يشفقون على بلواهم ، ويجدون في النهر والجبل والبحيرة والشجر شواهد على حبهم تعطف على وجدهم وتبكي لأساهم ، فكل ما في الكون يحسُّ بحبهم ويشهد على آلامهم وأحزانهم ، فكأن الدنيا قد لبست لهم ثياب الحداد واكتست بالحزن . وهو على هذه الأوصاف أخذ من بعض معاني المشرقين وتعلّق بصور البحرى فلقب ببحرئى المغرب .

وابن حمديس ولد في صقلية ، وهي فاتنة ، وانتقل إلى الأندلس وأفريقية فاتصل بالقفار والصحارى فوقع حيناً على معاني القدماء من وصف الأطلال والديار وآثار الأحبة ، وسخر منها حيناً آخر كما فعل أبو نواس ، وتطرق إلى أوصاف البرق والصيد والفرس ، فلاذ بأسباب المشرقيين وتعلق بنجد وغيرها ، وهتف كابن الدمينه ووصف الخمر كأبي نواس ، فسكر للغمام والطيور والشروق والغروب والنسيم الرقيق والسحب المظلمة ورسم الغصن بالتثني سكران بالندى والشمس تجرى كالذهب ، وذكر غرة الصبح وطلل الحمى . ولكنه على هذا التقليد كان يرى إلى معان طريقة يحاول أن يشق طريقه بها إلى الحديد فيقول :

وراعك يا بحر لى جنة لبست النعيم بهالا الشقاء
 إذا أنا حاولت منها صباحاً تعرضت من دونها لى مساء
 فلو أننى كنت أعطى المني إذا منع البحر منها اللقاء
 ركبت الهلال به زورقاً إلى أن أعانق فيها ذكاء

وهي أبيات جميلة تبين عن وصف جديد للطبيعة ومعان مستحدثة ، فهو يتمنى أن يُعطي المني ليركب الهلال كزورق فيبلغ الربيع .

وابن خفاجة ، عاش للفن ، وابتعد عن السياسة ، وكان سعيداً بمقامه

ودياره يفضل الأندلس على الدنيا كلها ، ويرى فيها جنة الخلد ، ولو خيّر
 بلداً لاختارها ، فأقبل على الرياض واتصل بالبساتين وتعلق بمباهج الطبيعة
 فرآها كعروس ، ووصفها في صور جميلة وتعابير رقيقة تدل على تجديد في
 اللفظ والمعنى قال :

في أبطح رضعتْ ثغور أقاحه أخلاف كل غمامة مدرار
 نثرت بحجر الأرض فيه يد الصبا درر الندى ودرهم النور
 فالأقاحى لها ثغور ترضع أخلاف الغمام ، ويد الصبا نثرت الندى كالدرر
 والنور كالدرهم ، وهو يساجل الغمام ويطارح الحمام ويناجى الديار ، وقد
 عاثت فيها الطي وحما البلى محاسنها ، وصور الحمر وشربها من كف أحوى
 أحور ، فشرب معه الثرى وتغنى الهزار وشفق الماء ، وقد فعل شاعرنا كما فعل
 العباسيون في اختيار الغيم والثلج والمطر لأوقات شربه ، فوصف الشمس سقيمة
 صفراء واستمع إلى لحون الطرب والمغنين وغناء الطير وحفيف الشجر وتمایل
 النور ، ونظر إلى الأغصان تمايل من طرب ، وقد أفر ثغر الهلال عن سرور .
 وصورة الفرس عند ابن خفاجة تستعير من الروض كذلك فتجعل خده
 من الجلتار وأذنه من ورق الآس ، ورسم الليل كزنجي في سواده والنجم كدينار ،
 وصورة الذئب في ديوانه تستعير من النجوم والكواكب قسماتها وألوانها ، وكذلك
 وصف الطير والكلب ، فهو بستاني يعيش بين الشجر والزهر فيغمس ريشته
 في ألوانها ثم يشبه كل ما يرى بها .

ووصف ابن خفاجة ما وصفه العباسيون من أشخاص وأشياء ، وزاد
 فرسم صورة للأحبدب تختلف عن صورة ابن الرومي . ووصف الأسد والنارنج
 والنار ، والأرنب والشراب ، واستعمل كزملائه صور المشرقين حيناً وابتكر
 أحياناً ، فهو يصف النهر ويبدع في تجديده حين يقول :

لله نهر سال في بطحاء أشهى وروداً من لمى الحسناء

متعطف مثل السوار كأنه والزهر يكتنفه مجرّ سماء
 قد رق حتى ظن قرصاً مفرغاً من فضة في بردة خضراء
 وغدت تحف به الغصون كأنها هدب يحفّ بمقلّة زرقاء
 فالماء أشهى من لمى الحسناء ، وتعطفّ النهر كالسوار ، ورقته كقرص
 من فضة في بردة خضراء ، والغصون تحفّ به كما تحيط الهدب بالمقلّة
 الزرقاء ، وهذه في جملتها أوصاف طرقها العباسيون ، ولكن تجديده كان في
 عرض الصور بألفاظ جديدة واستعارات تصويرية فيها فتنة وسحر تشبه الأرض
 التي عاش عليها ، فهو جنّان قضى حياته في جنة الأندلس وخرج في أوصافها
 بصور جنائنية لا تجدها عند غيره .

وهكذا رأينا أن الشعراء في الأندلس أفاقوا في القرن الخامس الهجرى
 على صيحة التجديد في التعبير والتصوير ، ولكن الزمن لم يتح للعرب أن يسيروا
 طويلاً في الطريق الجديدة فقد أخرجهم الأسبانيون من هذا الفردوس ، وقد كان
 أمل القومية العربية وأمل الوصف في الأدب العربيّ ، فخبأ النور الذي سطع
 خلال هذه القرون ، وجاءت عصور الانحطاط ، وبسط العثمانيون ظلّهم
 الثقيل على الأدب العربيّ فنام نومة طويلة ، ولم توقظه إلا نفحة من ديار
 الغرب هزّت كيانه هزا في الشام ومصر ، فتحرك لإحياء القديم أولاً ثم نشط
 للإبداع والاختراع .

فصل الحادى عشر

الوصف فى العصر الحديث

شوقى - صبرى - مطران - حافظ - العقاد - على محمود طه -

على الجارم - أبو شبكة - الأخطل الصغير - خليل مردم بك

ظلت مصر تستمع إلى شعراء الشام والعراق والأندلس فتطرب ولكنها لا تشارك فى قول الشعر ، حتى كان القرن الرابع الهجرى فانبرى شعراؤها يقولون فى الوصف خلال ثلاثة قرون كما قال العباسيون ويرسمون الطبيعة قيعيدون إلى الأذهان صور أبى نواس وأبى تمام والبحترى وابن زيدون وابن المعتز . وهكذا لمعت فى مصر أسماء ابن النبيه وابن قلاقس وابن الساعاتى وابن سناء الملك والقاضى الفاضل وابن مطروح ، وظهرت فى الأدب العربى أوصاف النيل والرياض حوله ، والسماء والأفلاك ، تستعير من أوصاف المحبوب فتنته وبحره على أساليب العباسيين .

فلما كان العصر الحديث هبت على النيل ريح الغرب وحملت كثيراً من المصريين إلى أوربة ، فسرى فى النفوس شعور جديد يدفع إلى حب الأدب العربى وإحيائه بل وتجديده ، لذلك حاول كثير من الشعراء فى مصر أن يقلدوا الغرب حيناً فى أسلوبه وأغراضه ، وقام أمامهم فريق كبير يجب أن يقلد العباسيين فى اللفظ والمعنى ، وكان من وراء هذين الفريقين فئة من الشعراء شقت طريقها إلى شىء من الحديد الطريف ، وتنسم اللبانيون أريج هذا الشعر فحملوه إلى لبنان وإلى المهجر ، فكانت محاولات فى الوصف

والتصوير ، تجارى العصر الحاضر واختراعاته فى كثير من عناوين القصائد ، ولكنها لا تخرج عن المعانى المطروقة إلا فى الألفاظ المجنحة والصور اللفظية الجديدة .

وقد حاول أحمد شوقى فى مصر أن يخص جانباً كبيراً من شعره بالأوصاف كالنخيل والبحر المتوسط والشراع ، فوقع على معانى القدماء ، ثم أراد أن يكتب فى الحيوان فجعل قصصه تقليداً للشاعر الفرنسى لافونتين ، لا تصويراً كما فعل الصنوبرى والسرى وكشاجم .

ولقد سعى إلى تصوير الخمر والرقص والربيع والمساجد والكنائس والقصور بعد أن رأى وسمع وسافر إلى باريس ومدريد ، ووقف فى غاب بولونيا وعلى قبر نابليون ومسجد قرطبة ، وضواحي جنيف وأطراف البوسفور ، وراح يرسم ما شاهد ، ولكنه لم يفعل شيئاً جديداً ، فلم يبتعد عن التقليد ولم يتخلص من معانى القدماء وتشبيهاهم وأوصافهم ؛ بل أضاف إليها عواطفه الشخصية وأحاسيس نفسه .

فلما تعرض للطيارين الفرنسيين ذكر سليمان وبساط الريح حين وصف الطائرة :

صهوة العزّ	اعتلوا تحسبهم	جمع أملاك على الخيل تسامى
رفعوا لولبها	فاندفعت	هل رأيت الطير قد زفّ وحاماً (١)
شال بالأذنان	كل ورمى	بجناحيه كما رعت النعاما
ذهبت تسمو	فكانت أعقباً	فنسوراً فصقوراً فحماماً
تنبرى فى زرقه الأفق	كما	سبّح الحوت بدأماء وعاماً (٢)

وهى صورة جاهلية فيها الطير والنعام والنسور والصقور والحمام والحوت ،

(١) زف الطائر : رى بنفسه أو بسط جناحيه .

(٢) الدأماء : البحر .

قد اجتمعت لتعير الشاعر من رسومها ألواناً وأشكالاً لهذه الطائرة ، ولولا كلمة لولب وزرقة السماء لحسبنا أنها تجرى بين الحيوان على الأرض . والواقع أن الطائرة تشبه الطير أكثر ما تشبه وقد اخترعت تشبهاً بالطير ، ولكن الشاعر يستطيع أن يتخيل في رسمها أبعد من هذه الصور الحسية المادية الصرفة في القرن العشرين . ولعل عذره في ذلك أن أحداً من الشعراء لم يخض معمعان هذا الوصف فكان الميدان بكراً . وشأنه في وصف الطائرة كشأنه في وصف السفن والسيارات وغيرها .

وإسماعيل صبرى وصف النيل والبرق والسحاب والدواة والشيب ، والثعلب والغراب ، ولكنه جعلها في رسوم العباسيين ، تأخذ من الحيوان والحنان والأشجار ؛ فقد قال في البرق إن سناه عيون مراض أو مصابيح قبل الانطفاء أو سيوف تميل بأيدي الكماة أو مواطئ الخيل على الصخور يتطاير منها اللظى . وخلييل مطران ، رسم قلعة بعلبك مسقط رأسه ، فعرض للنحت والصور والحنان المعلقة في أسلوب بسيط سهل ، طريف . ووصف الأهرام فتعلق بالعبارة أكثر من الصورة ، وامتألاً ديوانه بأوصاف كثيرة في الورد والبنفسج والزنبقة ، فحلق في معان كثيرة لم نرها لغيره :

وأفانين من شقيق ومن فلّ
ومن مضعف ومن ريحانِ
كل ضرب شبيهه سرب جميع
مفرد عن لداته في مكانِ
طال فيها تأملي وكأني
كنت منها في روض عين حسانِ
وهكذا دفعه خياله لأن يشبه كل زهرة بحسنة فكأنه في جمع منهن يتوحي
شبيهاً لمعشوقته ، فإذا هي كما يقول في قصيدته تشبه الزنبق في طهرها ونقاها .

ووصف الشاعر سرباً من الغيد يصنعن حلوى العيد فيخرجن من كتل العجين بدائع بأيديهن ، وأناملهن مخضوبة بالدم لشدة حمتهن ، وزنودهن كالعاج معرقة بالزمرد ! .

وأتيح للشاعر أن يصور مشاهد من أرض الكنانة جميلة كمجنى القطن وصبيات المزارع يخطرن فيها متغنيات هازجات ؛ وصور مشاهد تاريخية بارعة في قصيدته الكبرى « نيرون » فرسم حريق روما وحال الشعب الروماني . ووصف المدن السورية واللبنانية في ديوانه مثل زحلة والمعلقة وطرابلس الشام وحلب وبكفيا والخنشارة ، وصور المشاهد الجميلة فيها . فهو بحق شاعر الشام ومصر في ديوانه حين نفهم من ذلك وصف ما في القطرين الشقيقتين من معالم تاريخية ومناظر ساحرة .

ومطران وصف الطائرة مثل شوقى ، ولكنه وصف النياق والجرود العتاق ، وجعلها مزجاة بأجنحة غلاظ تزف زفيفاً ، وحين عرض للطيارين اللذين قتلها عليها قال :

هبط النسر بفرخيه وما كان صيادهما غير القضاء

وأما حافظ إبراهيم فقد عرض للوصف في شعره ، فرسم حوادث الزلزال في مسيئنا ووصف الشعب الإيطالي وما لاقى من عنت وعذاب ، وصور الطبيعة هائجة تغلى حقداً ، والأرض تبغى والبحر يطنى والجبال ترجم وتقذف بشواظ من مارج ودخان ، فكأنه يستعير وصف جهنم من القرآن أو يوم القيامة حين تزلزل الأرض زازالها . وهذا التصوير بديع يقول فيه :

بغت الأرض والجبال عليها وطنى البحر أيما طغيان
تلك تغلى حقداً عليها فتنة شق انشقاقاً من كثرة الغليان

فقد وصف نكبة الطليان بالزلزال كما وصف مطران نكبة الطليان بحريق رومة وجنون نيرون ، ولكن بأسلوب مختلف أخذ صورة من الشعر القديم ومثاقه من روعة اللغة التي نعرفها لحافظ .

ووصف حافظ سفينة في البحر رحل عليها إلى إيطاليا فصورها تترامى

في المياه بصدرها لا تبالي بالموج أو بالصخور، تملو تارة وتهبط أخرى ، وشبهها
بالسيل ويجواد يسعى إلى الطعان :

وعليها نفوسنا خائرات جازعاتٌ كادت شعاعاً تطير
في ثنايا الأمواج والزبد المذدوف لاحت أكفاننا والقبورُ
ثم قال إنّ نفوس الركب جازعة خائرة تطير شعاعاً من الرعب في قلب
الأمواج ، والزبد كالقطن المذدوف كأنها أكفان تهبأ وقبور تفتح ، وهذه
معان جميلة تقلّبت على لسان حافظ في أوصافه ، اعتمد فيها حيناً على القدماء
واخترع حيناً بلطف حيلته وجميل عَرَضِهِ . أما الخمر فقد عصرها من خد
النجم تارة ومن خدود الملاح أطواراً ، وذكر قدمها قبل نوح ، وتعلّق بمعاني
أبي نواس وغيره من العباسيين ، فطلب من غلامه أن يسقيه حتى لا يطبق الكلام
إلا بهمس ؛ وساقه رشاً لطيف تنطق عيناه بالسحر ، وخمره حفظت في الصهاريج
منذ بابل وأقامت في جوف الدنان المظلمة ، وهذه كلها معان عتيقة قتلها
الشعراء ترديداً .

ووصف عباس محمود العقاد النيل ، والرياض ، والثاج ، والنار ،
والبلد ، والشتاء ، والعقاب ، والكروان ، والصحراء ، واتخذ أكثر شعره في
الوصف ، وحاول أن يقلد الغربيين وأن يبتعد عن الشعر المصري المعاصر ،
ولكنه وقع كثيراً في معاني القدماء ، قال يصف السينا :

بربك ماذا في ستائرك الطلس أشباح جن تلك تظهر للإنس؟
إذا لم تكن جنّاً فما لي عهدتها تفر فرار الجن من طلعة الشمس؟
فعاد في وصف العجائب إلى الجن كما عاد النابغة وغيره إليها حين وصفوا
القصور المدهشة والآثار العظيمة ، ورسم الستائر طلساً كذّبت النابغة والبحترى
والفرزدق ؛ وله في صوت الكروان وعيشه صور جميلة حية لا تنسى .

وأما على محمود طه فقد وصف سفينة الجنود والحسنة التي لقيها عليها ،

فصوّر عاطفته وحنينه إلى مصر وأهلها كما صورّ شوق قصور الأندلس والحمراء ، فتحرّكت الأشواق وسكتت الألوان وخفيت الأشكال في كثير من صوره . وبعضها يحمل طابع الإبداع والتجديد ، ولو أن العمر امتد بالشاعر لأمد الوصف بكثير من روائعه .

وتعلّق بعض الشعراء في المهجر ولبنان ومصر بالوصف اللفظي ، كفوزي المعلوف وشفيق المعلوف والقرويّ فراحوا يمدحون الكلمات صوراً مجنحة - إذا صح التعبير - أو يكسون الموصوفات من خيالهم أشكالا تطير بالسامع إلى جوّ طريف وتنقله إلى حيث يريد الشاعر ، وقد رأينا بعض اللحن والأهازيج في ديوان علي الجارم حين يقول :

ومزامير أطلقت من فم السح
ورنت كل سرحة تسرق السّم
وأهازيج ردّتها الأزهري
ذهل الشعر فاستفّاق فألني
ر فمادت لها رواسى الجبال
مع وتعلّو بغصنها الميال (١)
ر وغنى بها نسيم الشمال
موكباً حفّ بالسنا والجلال

وهذه صور جميلة ، فالمزامير تغنى وتميد لها الجبال الراسية والشجر يسترق السمع ويتناول الغصن الميال، والأغانى تردّها الأزهير فتسرى مع النسيم ، وسحر الشعر بجمال الأنغام وذهل برائع الألحان، ثم استيقظ فراعته موكب السنا والجلال .

وقد سار بعض شعرائنا على هذا النمط يعيرون اللفظ أجنحة من الوصف لعلها تكون لوحات رائعة التصوير والرسم ، تصف النفوس والقلوب والمشاعر ، وترسم الطبيعة . وإليك لوحة رسمها إلياس أبو شبكة للنجوم :

كأنّ النجوم الضميلة في الأفق
رشح خور على خابيه
كأنّ النجوم زفير خطايا
تصعده ليلة زائيه

(١) السرحة : الشجرة - تعلو : ترفع رأسها وتتناول .

وقد شهدنا فيما تقدم وصف شعرائنا للنجوم، ولكننا لم نعهد تشبيها برشح
الخمور على خابية أو بزفير الخطايا من امرأة زانية . وما دمنا في رسم الطبيعة
فلنسمع إلى بشارة الحورى يصف جبل صنين بلبنان :

وأبو الربى صنين قام كشمعة بيضاء تمعن في السحاب وترقى
يتوقد النجم السنى برأسها فترى بوادر دمعها المترقق
وهكذا رسم الثلج فوق صنين كشمعة تناطح السحاب وفي رأسها نجم سنى
يتوقد فتسيل الشمعة أسى وتبكي دموعاً . ووصف الشاعر الأخطل خمره فأبدع
فيها حين قال :

يا ذابح العنقود خضب كفه بدمائه بوركت من سفاح
أنا لست أرضى للندامى أن أرى كسل الهوى وتناوب الأقداح !
أدب الشراب إذا المدامة عربدت في كأسها أن لاتكون الصاحي !

وطبعي أن نجد بوناً شاسعاً بين معاني أبي نواس ومعاني الأخطل الصغير
في لبنان ، فقد ضربت الأيام وتفاقت على أدبنا مدارس ومداهب أفاد منها
شعراؤنا المعاصرون ، فجعلوا ذبح العنقود والدماء تسيل منه والسفاح لعاصر
الخمير ، أما فراغ الأقداح فتناوب وملؤها عربدة ! وهذا جديد في الوصف ،
يدفعنا إلى الأمل بأن أدبنا يشدّ إلى آفاق جدجدة .

وعكف كثير من الشعراء المعاصرين في مصر والشام على وصف الرقص
والمراقص ، فأبدع منهم فيها الشاعر خليل مردم بك حين صور الأجساد
متلاصقة حتى ما يخلص الماء من بينها من فرط اعتلاق ، وكأن الفتى يحمل
ثدي فتاته لشدة القرب حين الرقص . وعمد هذا الشاعر إلى المآذن والنيران
والتلوج والحبال والأنهار فجلا رسومها على شكل جديد فيه حنين وعاطفة ودقة
تصوير . وتبعه كثير من الشباب في محاولاته ، وستؤتي هذه الخطوات أكلها
إذا تعهدنا النقاد وأخلص لها مؤرخو الأدب ؛ وهم سيضيفونها إلى ثروتنا القديمة

في الوصف خلال أربعة عشر قرناً من المشرق إلى الغرب ، لأنها ستكون متحف الوصف العربي .

وسيكون للوصف حينذاك صورة يخلّق معها الشاعر بالألوان والأصباغ والظلال كما انعكست في نفسه من حزن أو فرح وحركة أو جمود ، وسيصبح للشعر العربي متحف جميل فيه الحيوان والإنسان والطبيعة الميّنة من قرية أو قصر أو كوخ أو بستان أو وجوه الناس ، أو مناظر الأسرة والبيت ومشاهد الأب والأم والأولاد ، وصور البؤس أو الفرح في المصانع والمعامل والشوارع والبيوت ، في المدينة والريف ، تنطق كلها بنفسية الشاعر وتعبر عن روحه ، فيتأثر بها القارئ ويذهب مع الشاعر إلى الأفق الذي كان يخلّق فيه ويدرك أهدافه ومراميّه ، ويبصر بعينه التي كان يرسم بها ، ويحسّ بروحه التي كان يخلّق معها ، وهذا هو الفن الموفق ، والوصف المحوّد ، والخلود في الشعر .

فهرس

صفحة	
٥	تمهيد
٩	الفصل الأول : وصف الحيوان فى العصر الجاهلى
٢٩	الفصل الثانى : وصف الطبيعة الميتة فى العصر الجاهلى
٣٥	الفصل الثالث : وصف الخمر والسقاة فى العصر الجاهلى
٤١	الفصل الرابع : وصف السلاح والحرب فى العصر الجاهلى
٤٧	الفصل الخامس : الوصف فى العصر الأموى
٥٣	الفصل السادس : وصف الحيوان فى العصر العباسى
٦٧	الفصل السابع : وصف الطبيعة الميتة فى العصر العباسى
٨٥	الفصل الثامن : وصف الخمر والسقاة فى العصر العباسى
٩٣	الفصل التاسع : وصف المعارك والحروب فى العصر العباسى
٩٧	الفصل العاشر : الوصف فى الأندلس
١٠٣	الفصل الحادى عشر : الوصف فى العصر الحديث

رقم الإيداع	١٩٨١/١٦٥٩
التّرقيم الدّوى	ISBN ٩٧٧-٧٣٤١-٣٩-٣

١/٨٠/١٥٧

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)

مجموعة فنون الأدب العربي

لقد قصد من هذه المجموعة أن تجلوا للقارئ العربي ألواناً من الفنون الأدبية التي عالجها الأدب العربي في مختلف أقطاره وعصوره . فهي تقف أمام كل فن أدبي فتعالجه في جزء أو أكثر من هذه السلسلة التي سينتجع فيها محصول وافر من فنون الأدب المختلفة التي تكون في مجموعها ذلك الهيكل الأدبي الضخم الذي شيدته العربية في تاريخها الطويل . .

وفضل هذه المجموعة أنها تعالج الأدب العربي لا على طريقة السنين ، ولا على طريقة التقسيم إلى عصور كما ألفنا في كتب التاريخ الأدبي . . . ولكنها تعالج الأدب على مدى ما اتسع فيه من فنون . . . فللمقامة موضوع ، وللقصة موضوع ، وللغزل موضوع ، وللوصف موضوع . . . وهكذا ستكبر هذه المجموعة على قدر ما في الأدب العربي من فنون .

صدر منها :

- في الفن الغنائي : الغزل (جزءان) ، الرثاء ، الوصف ، المديح ، الفخر والحماسة ، الهجاء ، الموشحات والأزجال .
- في الفن القصصي : المقامة ، التراجم والسير ، الرحلات ، الترجمة الشخصية .
- في الفن التمثيلي : المسرح .
- في الفن التعليمي : النقد ، الخطب والمواعظ ، الحكم والأمثال .

تحت الطبع :

- في الفن الغنائي : الزهد والتصوف .
- في الفن القصصي : الملحمة ، القصة ، الحكاية والأقصوصة .
- في الفن التمثيلي : الفاجعة والمأساة ، الملهاة .
- في الفن التعليمي : منظومات الشعر .